رحمة للعالمين ﷺ

(المحسن إلى العالم، رحمة للعالمين، الأسوة الكاملة)

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: محمد طاهر نديم

اسم الكتاب: رحمة للعالمين ﷺ

(المحسن إلى العالم، رحمة للعالمين، الأسوة الكاملة)

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ الموافق لـ ٢٠١٥م

A Mercy for All Mankind

(The Benefactor of the World, A Mercy for All Mankind,
The Paragon of Perfection)
By
Hazrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmood Ahmad
Khalifatul-Masih II

Translated from Urdu by: Muhammad Tahir Nadeem

First Arabic translation published in the UK in 2015

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Tilford

For further information please contact:
Phone: +44 1252 784970
Fax: +44 1252 781692
www.islamahmadiyya.net

Cover designed by: Anan Massoud Odeh

ISBN: 978-1-84880-952-9

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

هذا الكتاب يحوي خطابين لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﷺ، الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، ومقالة له ﷺ حول سيرة النبي ﷺ، ننشر ترجمتها معًا بأمر من حضرة أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره العزيز. الخطاب الأول هو بعنوان المحسن إلى العالم، والثاني بعنوان الأسوة الكاملة ، أما المقالة فهي بعنوان رحمة للعالمين ﷺ.

المحسن إلى العالم

لقد تفاقمت إساءات الهندوس إلى النبي الكريم ﷺ مع مرور الوقت وأخذت تتزايد في مطلع القرن العشرين إلى أن شهد عام ١٩٢٧م نشر كتاب شنيع بعنوان: "رنغيلا رسول" ومجلة "ورتمان" حيث تجاوزوا الحدود كلها في الإساءة وبذاءة اللسان مما أسفر عن التوتر الطائفي الشديد بين المسلمين والهندوس. وفي خضم هذه الأوضاع وبناء على إلقاء من الله تعالى بدأ حضرة المصلح الموعود ﷺ عقدَ اجتماعات حول سيرة النبي ﷺ من أجل الدفاع عن النبي ﷺ وشرفه، وأمر جماعته

بعقد هذه الاجتماعات كل سنة لِتُذْكَر فيها شمائلُ النبي ﷺ وسيرتُه وشأنه العظيم حتى يدرك الناس عظمة هذا النبي المقدس ويعرفوا تضحياته وأياديه البيضاء التي أسداها إلى البشرية كلها. ثم أعلن حضرته بعقد هذه الاجتماعات في ١٧ يونيو/حزيران ١٩٢٨م في أرجاء الهند كلها، فحصل ذلك وفقًا لأوامره، كما عُقِد في قاديان أيضا اجتماع كبير بهذه المناسبة وألقى فيه حضرته رضي الله عنه خطابًا استمر لثلاث ساعات متواصلة ونُشِر لاحقًا بعنوان: المحسن إلى العالم، تناول فيه حضرته بأسلوب فريد أخاذ سيرة النبي ﷺ وأياديه على البشرية وتضحياته، كما ردّ على بعض اعتراضات المعارضين بأدلة تاريخية دامغة.

رحمة للعالمين ﷺ

كتب حضرة المصلح الموعود رضي الله عنه هذه المقالة في ١٩٣٣م ونُشرتْ في العدد الممتاز لجريدة "الفضل" عن خاتم النبيين ﷺ في ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٣م. لقد أثبت فيها حضرته أن النبي ﷺ كان رحمة للعالمين، فكان رحمة للسماوات والأرض والملائكة والدهر والبشرية ونوع الإنسان والأنبياء السابقين والكتب السابقة والضمير الإنساني والمعاقين والأجيال القادمة.

إنها مقالة عظيمة المحتوى كما أنها تتسم بأسلوب علمي وأدبي فريد يجعلها تحفة أدبية رائعة.

الأسوة الكاملة

هذا الكتيب خطاب للمصلح الموعود ﷺ ألقاه في جلسة سيرة النبي ﷺ بقاديان في ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٣م. لقد أثبت فيه حضرته أن النبي ﷺ كان أتمّ مظهر للصفات الإلهية الأربعة المذكورة في سورة الفاتحة وهي صفة الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية، كما أثبت ﷺ فيه أن النبي ﷺ كان أسوة كاملة لبني نوع الإنسان في جميع مجالات حياتهم من الولادة إلى الوفاة.

لقد حاز شرف تعريب هذا الكتاب القيّم الداعيةُ محمد طاهر نديم، فجزاه الله أحسن الجزاء.

وجدير بالذكر أن المرحوم ملك مبارك أحمد -الداعية الإسلامي وأستاذ الجامعة الأحمدية بربوة- قد قام بتعريب جزء من مقالة "رحمة للعالمين" ونشره في مجلة البشرى الصادرة من الجامعة الأحمدية بربوة في بداية السبعينيات من القرن الماضي، فجزاه الله خير الجزاء. وقد استفاد المترجم من هذه الترجمة الرائعة وقرَّبها إلى أصل النص.

ولا بد من التنويه إلى أن معظم النصوص وأحداث السيرة الواردة في الكتاب مذكورة عمومًا بالمعنى لا نصًّا.

وأن المراجع المذكورة في الهوامش ليست من أصل الكتاب بل وضعت من قبل الناشر.

وأخيرًا نتقدم بخالص الشكر لكل مَن ساهم في نشر هذا الكتاب فجزاهم الله أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن يوفق القارئ الكريم لينهل مما في هذا الكتاب من فوائد جمَّة، ونبتهل إلى الله تعالى مرة أخرى أن يجعل في هذا الكتاب بركةً خارقة ونفعًا عظيمًا للعباد، ويشفي به غليلهم الروحاني، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

المحسن إلى العالم

خطاب

ألقاه سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه

في اجتماع بقاديان

في ١٧ يونيو/ حزيران ١٩٢٨



أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

الغرض من هذا الاجتماع

لقد عقد اجتماع اليوم من أجل خَلق التسامح واحترام مشاعر الآخرين من سكان بلادنا، وهو أمر لا يمكن بدونه الوصولُ إلى الله ولا إقامةُ الأمن في العالم. لقد أُمِرنا فيما أعطي لنا من تعليم بأن نحترم كبار صلحاء الأديان وهُداتَها أجمعين، أي أولئك الذين يعدّهم أتباعهم مبعوثين من الله تعالى، والذين لا تزال جماعاتهم موجودة في العالم، ويؤمن بهم أتباعهم بأنهم كانوا مرسلين من الله ومأمورين أو مبعوثين منه. فينبغي علينا احترامهم وإجلالهم وتجنب الإساءة إليهم. وعملا بهذا التعليم بقينا نحترم على الدوام صلحاء الأقوام المختلفة ومؤسسي الديانات؛ فنحترم كبار صلحاء اليهود، ونوقّر صلحاء النصارى، وننظر إلى صلحاء الصينيين نظرة التبجيل والاحترام، ونقدّر صلحاء اليابانيين، كما نوقّر كبار صلحاء أبناء بلدنا الهندوس أيضا. ولا نفعل ذلك لشيء يخصّنا، ولا لتحقيق منافع ومقاصد شخصية، بل نحترمهم طاعةً لأوامر الله تعالى معتبرين إياهم مبعوثين من الله تعالى ومرسلين إلى العالم. ونرى أنه لو فكّر كل قوم وأهل كل ديانة بجدية في هذه القضية لاضطروا إلى

---

[1] الأنعام: ١٦٣-١٦٤

الاعتراف بأن سلام العالم- سواء كان روحانيًا أو ماديًّا- يتوقف على التحكم في الأفكار والألسن، وألا يتكلم أحد بأسلوب يؤدي إلى التناحر والشقاق.

اجتماع البرهموسماج في "شِمله"

لقد زرت شمله في السنة المنصرمة، وكانت تلك أيام ذكرى وفاة "رام موهن راي" الذي كان من كبار شخصيات "كالكوتا"، وبالتالي كان اجتماع البرهموسماج بهذه المناسبة قد أوشك على البدء في شمله.

السيدة "نايدو"[٢] زعيمة هندوسية وشاعرة كبيرة تحظى بالتوقير والاحترام عند الهندوس والمسلمين على حد سواء على شاكلة غاندي،

---

[2] نايدوسروجني (١٨٧٩-١٩٤٩م) شاعرة وسياسية هندية. نجحت في الثانوية في مدينة حيدر آباد الدكن الهندية في عمر يناهز ١٢ عامًا. ثم درست في جامعة كامبردج. بدأت قرض الشعر باللغة الإنجليزية منذ صغرها. لقد قرضت الشعر باللغة الإنجليزية في قالب الحبّ عن بعض المواضيع الهندية، وهكذا أصبحت شاعرة بارزة في الأدب الإنجليزي. إن شعرها مزيج من العاطفة والفكر. لقد لاقت قصائدها في زمن ما رواجًا عامًا في الهند كلها كالأغاني الهندية. لقد اشتهرت بالمجاهدة القومية في حركة استقلال الهند. انضمت إلى غاندي في حركته بعدم التعاون مع الإنجليز، وهكذا ارتبطت ارتباطا وثيقا مع سياسة البلد، واعتقلت لمرات عديدة. انتخبت رئيسة حزب المؤتمر في جلسته المنعقدة في "كانبور" في عام ١٩٢٥م. عيّنت حاكمَ إقليم "أتر برديش" بعد استقلال الهند. وكانت ابنتها "بدماجا نايدو" حاكمةً لغرب البنغال. (الموسوعة الجامعة الأردية ج٢ ص ١٧٠٦ طبعة لاهور ١٩٨٨) (الناشر).

وإنها شخصية ذات نفوذ كبير. جاءت هذه السيدة للقائي وقالت: لقد عقدت البرهموسماج اجتماعًا بمناسبة ذكرى وفاة "رام موهن راي"، أليس جميلا أن تشترك في هذا الاجتماع وتلقي فيه كلمتك؟ كنتُ قد قرأت شيئًا عن البرهموسماج إلا أنني لم أكن أعرف شيئًا عن شخصية "رام موهن راي"، لذلك وقعت في حيرة من أمري، ولكن خطر ببالي فجأة أنه سعى سعيه للقضاء على الشرك، وهو أمر لا شكّ فيه، بغض النظر عن قلة معلوماتي عن أحواله الشخصية الأخرى، انشرح صدري بهذا التفكير وقلت لها سأشترك فيه، فذهبتُ للمشاركة في هذا الاجتماع، وكان يرأسه مستر س.ر. الذي كان عضوًا في مجلس نائب الملك، كما كان كثير من الشخصيات الكبيرة أيضا موجودين هناك إضافة إلى السيدة نايدو والسير حبيب الله.

وحصلَ هنالك ما لم يكن غريبًا في ذلك المجتمع وهو أن معظم المستمعين لم يكونوا يعرفون الأردو. سألتني السيدة نايدو: هل ستلقي كلمتك بالإنجليزية؟ قلت لها: لم أعتد الإلقاء بالإنجليزية، خلال إقامتي في الولايات المتحدة كنت أكتب وأقرأ من المكتوب، ولم يتسن لي إلقاء أي خطاب ارتجالا إلا بضع كلمات مختصرة جدًّا. قالت لي السيدة نايدو: إذًا يمكنك أن تلقي خطابك بالأردو. لم يكن رئيس الاجتماع يفهم الأردو و٩٠ بالمائة من الحضور أيضا كانوا بنغاليين لا يعرفون اللغة الأردية مما حال دون إلقاء كلمتي على الرغم من استعدادي لإلقائها.

الحق أنَّ رؤية المزِيَّة في الغير دليل على بصارة العينِ، وعدمها يدل على عماها. ويأمرنا الإسلام بعدم جحود مزايا الآخرين، كما يأمرنا باحترام صلحاء الديانات الأخرى وتوقيرهم.

اجتماع المولد

خطر ببالي أن هناك اجتماعات كثيرة يعقدها المسلمون إحياء لذكرى النبي ﷺ، إلا أنها تتصبغ بصبغة دينية بحتة كاجتماعات مولد النبي ﷺ. وإن الأمل في اشتراك غير المسلمين فيها لشيء بالغ الأهمية. يمكن أن يُتوقع منهم أن يأتوا لسماع أخلاق مؤسس الإسلام وصفاته الطيبة، ولكن لا يتوقع منهم التقيّد بالتقاليد الدينية في أي اجتماع منها. فمن الممكن أن يشترك هؤلاء في اجتماعات سيرة النبي ﷺ من وجهة نظر علمية وأخلاقية وتماشيًا مع العلاقات الإنسانية، إلا أنهم لا يستطيعون الاشتراك فيها كعادة دينية.

اقتراح للوحدة بين الهندوس والمسلمين

لقد رأيت أن عقد مثل هذه الاجتماعات هو الطريق الأمثل للحيلولة دون الاتساع المستمر في الفجوة بين الهندوس والمسلمين. ولا تتصبغ هذه الاجتماعات التي تعقد احتفالا بذكرى النبي ﷺ بصبغة دينية بل تتسم بصبغة علمية. إذا كان الناس يستطيعون سماع صفات الزعماء الدينيين الآخرين والاطلاع على مزاياهم، فلماذا لا يسعهم الاطلاع

على أخلاق النبي محمد ﷺ؟ وعليه فيمكن أن يشترك غير المسلمين أيضا في مثل هذه الاجتماعات، وبهذا الطريق يمكن تضييق تلك الفجوة –بين الشعوب– التي أخذت في الاتساع يومًا بعد يوم، وبهذا يمكن أن يتم الصلح بين الهندوس والمسلمين. بالإضافة إلى ذلك سيزداد المسلمون حبًّا وإخلاصًا للنبي الكريم ﷺ من خلال اطلاعهم على أحداث سيرته، كما أنه إذا استمع أهل الديانات الأخرى إلى الأحداث الحقيقية لسيرة النبي ﷺ فلا بد أن يمنعوا الذين يشتمونه ويسيئون إليه.

نجاح هذه الحملة

لقد تكللت هذه الحملة بفضل الله تعالى بنجاح أكبر من توقعاتنا، فمثلا إن كبار زعماء الهندوس– أمثال "ببن جندربال" الذي كان يعتبر من أكبر الزعماء قبل غاندي، و"س.ب. راي"، رئيس جامعة كالكوتا– قد سجلوا أسماءهم في الإعلان عن مثل هذه الاجتماعات أو قبلوا دعوة إلقاء الكلمات فيها، كما قدّم بعض الزعماء الآخرين أيضا أسماءهم، وتحمّل هندوسي من "مدراس" مسئولية عقد هذه الاجتماعات في محافظات شتى، وقال بأننا وجدنا شيئًا ثمينًا جدًّا من أجل إقامة السلام في الهند، ثم التمس منا عقد هذه الاجتماعات سنويًا. كذلك تعهّدت الجمعية الثيوصوفية بعقد اجتماع في مدراس، وعبّر رجالات كبار عن تأييدهم لهذه الاجتماعات بتسجيل أسمائهم وتواقيعهم على إعلانات عن

مثل هذه الاجتماعات كالزعيم الكبير لحزب الكونغرس "لاله وني تشند" وغيرهم. وقال أحد كبار زعماء السيخ "خرك سنغ" بأنه إذا كان موجودًا في أمرتسر يوم الاجتماع فسيشارك فيه وإذا كان في سيالكوت فسيشترك في الاجتماع المنعقد هناك.

باختصار، لقد لاقت هذه الحركة قبولا واحترامًا واسع النطاق عند المسلمين وغير المسلمين على حدّ سواء، ولم يقتصر الأمر على الاحترام فقط بل تمنّى هؤلاء أن تُعقد مثل هذه الاجتماعات دومًا للقضاء على أجواء التفرقة.

وأرى أنه إذا تكللت هذه الحملة بالنجاح خلال هذه السنة فسيعرف الناس أنها مفيدة جدًّا لإقامة السلام، وبالتالي سيسعى أبناء كل الطوائف لإنجاحها أكثر فأكثر في المستقبل. لذلك ينبغي بذل سعي كثير لإنجاح هذه الحملة لنحقق ذلك الهدف الذي يلقى قبولاً واسعًا لدى الهندوس والمسلمين على حدّ سواء، ألا وهو سيادة الأمن والسلام في الهند وازدهارها.

أساس الخطابات يوم ١٧ حزيران/ يونيو

بعد هذه المقدمة أتناول موضوع خطابي اليوم. لقد تلوت الآيتين التاليتين من الذكر الحكيم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ﴾[3]، ولقد ذكر فيهما إعلان النبي ﷺ الذي هو موضوع خطابي الذي سينقسم إلى المواضيع الثلاثة التالية:

- أيادي النبي ﷺ ومننه
- تضحيات النبي ﷺ
- قدسية النبي ﷺ

لقد احتوت الآيتان المواضيع الثلاثة المذكورة. فلم أضع هذه العناوين من عند نفسي بل هي ما قدمه القرآن الكريم. لقد أمر الله تعالى النبي ﷺ ليعلن بأن العالم سينعم بمنن كثيرة بواسطته. وقال له إننا جعلناك تضحي من أجل هذا العالم وقد طهرناك تطهيرا.

الصلاة تعني الدعاء والرحمة، ومعنى "صلاتي": المعاملة الحسنة والإحسان إلى الآخرين.

والمراد من النسك هو الذبح، ومعناه المعاقبة أيضا.

واستخدمت كلمة "محياي" بمعنى الراحة الذاتية، والممات بمعنى التضحية الذاتية. وعليه فقد قيل في هذه الآية: قل إن عباداتي أو معاملتي الحسنة مع الناس (وهو أيضا أحد معاني الصلاة) وتضحياتي وحياتي الذاتية وموتي كلها لله تعالى.

[3] الأَنعام ١٦٣-١٦٤

الأمر الأول هو صلاتي، وأُعلنَ بهذه الكلمة عن الإحسان إلى الناس. أي كأنه ﷺ قال بأنه قد أُحسِنَ إلى الناس بواسطتي.

كما أُخبر في نسكي ومحياي ومماتي أن موتي أو استشهادي أي تضحيتي كلها لله تعالى. ولقد أشير في هذه الجملة الأخيرة إلى القدسية؛ لأن القدسية تعني الطهارة، وليس من شيء أطهر مما هو لله تعالى. فقد ذُكرت في هذه الآية الأمور الثلاثة المذكورة. احتوت الآية الادّعاء بالإحسان والتضحية والقدسية وأخبِر فيها عن الدليل عليها.

طريقة خاصة

لقد أُخبِرنا في هذه الآية عن طريقة خاصة وهي أنه عند النظر إلى إحسان أحد أو تضحيته أو قدسيته يجب ألا يقتصر اهتمامنا على بعض أجزاء أعماله بل ينبغي أن ننظر إلى حياته كلها، ونفهم الهدف من حياته، إذ ليس صحيحًا الظن بأحد أنه ظالم لمعاقبته أحدًا أو لبعض أعماله المؤلمة. لأن من يصف المعاقِبَ بالظالم يخطئ في الرأي في كثير من الأحيان.

عصا الأستاذ

أضرب لكم مثالَ المدرسة أمامنا، فلو مر أحد من هنا ورأى مديرها يعاقب طالبًا بعصاه فبنى رأيا أن ظلمًا عظيمًا يمارس هاهنا فلن يكون رأيه سليما، لأنه لو لم يعاقب الأستاذ الطلاب على بعض أعمالهم الشريرة لكان من حق والدَيه القول بأن الأستاذ أفسد ابنهما ولم

يصلحه، لأنه يمكن أن يضِل الطالب في هذه الحالة ويتجاوز جميع حدوده في الشر والفساد. مثلا إذا سرق طالب أو كان ينقل في الامتحان من ورقة بدلا من اعتماده على حفظه، أو كان يرتكب سيئة أخرى، ولا يرتدع عن سوء تصرفه إذا وُجهت إليه النصيحة بكل محبة بل يزداد شرًّا وفسادًا، فليس من الظلم في شيء أن يعاقبه الأستاذ على ذلك، بل سيعدّ عقابه نابعًا من دواعي المحبة والمواساة له. فينبغي أن نعرف السبب الذي دفع الأستاذ إلى معاقبة الطالب، ولن يكون وصفه بالمظلوم صحيحًا لمجرّد تعرضه للضرب بعصا الأستاذ.

كذلك لم يحدث في بيت قط أن الوالدين لم يوبّخا ولدَهما أو لم ينذراه أو لم يضرباه، ولكن لا يمكن لأحد القول بأن الآباء والأمهات ظالمون دومًا. كلا، إنهم لا يظلمون أولادهم بل يحبونهم ولا يعاقبونهم إلا لإصلاحهم كلما لزم الأمر.

مشرط الطبيب الجراح

كذلك هناك مثال آخر: لو مر أحد بالقرب من المشفى ورأى الطبيب الجراح أخرج المشرط وأخذ يقطع به جسد أحد المرضى، فلا يصفه العاقل ظالـــمًا، بل ينبغي أن نبحث عن السبب الذي تطلّب هذه الجراحة. فإن لم يخرج الطبيب القيح بهذه الجراحة أو لم يقطع جزءًا فاسدًا من جسمه لمات ذلك المريض. فإذا كان الطبيب يُخرج القيح من

جرح أحد أو يستخرج الحصاة من بطنه أو يقلع سنًّا من أسنانه أو يقطع يده أو قدمه أو أنفه أو أذنه أحيانًا فهو لا يظلمه بل يرحمه. فمن يرى الطبيب يقوم بمثل هذا العمل النبيل يوقن بأنه يحسن إلى المريض، والدليل على اعتبار عمله هذا إحسانًا منه هو أن الناس يقصدون الأطباء ويعرضون عليهم مبالغ باهظة لكي يقطعوا أيديهم أو أقدامهم أو أي جزء آخر فاسد من أجسادهم. فلو لم يكن ذلك رحمة وإحسانًا من الطبيب لما أدّوا له مثل هذه المبالغ الطائلة لقاء هذا العمل. هل دفع أحد قط مالاً من جيبه ليتلقى عقوبة مقابله؟

اتهام الله

فينبغي النظر إلى الهدف من كل فعل، هل هدفه الإفادة أم الإيذاء؟ أما مجرد النظر إلى معاقبة أحد ووصفها بالظلم فليس بصحيح، وإلا فلا بد أن نعدّ جميع القضاة في المحاكم، وجميع الأساتذة والوالدين والأطباء من الظالمين، بل لا بدّ من القول في هذه الحالة أن الله ظالم أيضا، والعياذ بالله، لأننا نرى أنه يُزهق يوميًا أنفس الألوف بل مئات الألوف من الناس، إضافة إلى ذلك تنتشر الأوبئة ويحدث الطوفان؛ فإذا كان صحيحًا وصفُ أحد ظالـــمًا بمجرد رؤية عمله المؤلم فلا بد من القول بأن الله تعالى أيضا ظالم والعياذ بالله. ولكن إذا كانت هناك حكمة كامنة في أفعال الله، كأن يكون العذاب الذي يقع بالناس نتيجة لما ارتكبوه من أعمال شريرة في

سابق حياتهم، وعند آخرين يؤدي إلى تطهيرهم من مغبة الآثام، وعند غيرهم هو لرقيهم في العالم الأخروي، فلا بد أن نعترف أنه لا يسعنا وصف كل عذاب أو عقاب بالظلم. ويعدّ عقاب الله من هذا القبيل، ولابد من الاعتراف بأن عقابه ليس بظلم بل هو رحمة، وهو ينفع الإنسان في النهاية سواء أَحَسِبه أحدٌ نتيجة التناسخ أو جزاء على أعماله في هذه الدنيا أو إنذارًا له أو ذريعة لرقيه في الآخرة.

باختصار، لا يمكن أن يوصف بالظلم مُجَرَّدُ عملِ الإنسان أو قسوته أو معاقبته لأحد أو إيقاعه عقابَ الموت أو القتل بأحد، إنما يعدّ ظلمًا إذا ثبت أنه لم يقم بذلك محبةً وشفقة ومواساة ونصحًا لغيره، بل قام به انتقامًا وأخذًا لثأر نفسه. فإذا عاقب غيره مدفوعًا بغضبه أو استخفافا بغيره أو من أجل التلذذ بانتقامه منه، فإن عمله هذا سيكون عبثًا أو ظلمًا؛ ولكن إذا كان الغرض من فعله هذا هو نيل رضى الله تعالى أو إصلاح المعاقَب أو الحفاظ على السنن الكونية، فلن يعدّ هذا العمل سيئًا.

اشتراك الزعماء الدينيين في الحروب

لقد اشترك الزعماء الدينيون الكبار في الحروب بشكل أو بآخر. مثلا، اشترك "رام تشندر" في الحرب؛ حيث شن هجمة على "راون"[٤]

[4] يقال إن "راون" كان ملكًا ظالمًا انتصر عليه الإله "راما" قبل آلاف السنين، وتحكي الأسطورة أن "راون" خطف "سيتا" زوجة "راما"، وأراد أن يرغمها على الزواج به، ولكن "راما" انتصر عليه بمساعدة الآلاف من القردة. (المترجم)

ودمّره تدميرا، حين أراد أن يلقنه درسًا حتى لا يظلم الآخرين. هل كان ذلك عملاً صالحاً؟ كل عاقل يرى عمل "رام تشندر" صحيحًا ويمدحه على ذلك. كذلك خاض "كرشن جي" حربًا بل حرّض على القتال تحريضًا شديدًا، وأكد أيما تأكيد في "غيتا" على ضرورة الحرب، وأنها ليست ممنوعة إذا كانت من أجل تحقيق أهداف نبيلة، وأخبر بأنه كان يقوم بهذا التحريض لوجه الله تعالى. لأجل ذلك كان فعله حسنًا و لم يكن سيئًا.

وهناك أمثلة مماثلة في الديانات الأخرى أيضا. صحيح أن عيسى عليه السلام لم يجد فرصة الخوض في الحروب، ولكن أتباعه الذين أتوا بعده قد حاربوا من أجل إحقاق الحق. فثبت أنه ليس سيئًا ما يقوم به المرء بحسن النية وإلى حدّ معقول من أجل إصلاح العالم ولمنفعته، بل هو حسن.

أية رحمة تُعَدُّ حسنة؟

والحال نفسها للرحمة أيضا. فلا تُعَدُّ الرحمة حسنة إلا إذا قام بها المرء بحسن النية والإرادة. مثلا لو كان عند امرئٍ طفل لغيره، ويراه أنه يفسد يومًا بعد يوم دون أن يقول له شيئا، ولا يمنعه من ارتكاب السيئات، فلا يصف أحد فعله هذا بالحسن، بل الجميع سيقولون: بئس ما فعلَه إذْ أفسد ابنَ فلان. كذلك إذا كان امرؤٌ رحيم الطبع فلا يُمدح على ذلك؛ فمثلا إذا كان جبانًا وبالتالي لا يستطيع إيقاع عقاب بحق أحد،

فلا يعد ذلك مَزِيَّة له ولا يُمدح عليه بل هو نقص فيه. كذلك لو رحم أحد غيره رياء، أي قلبه ممتلئ بغضًا لكنه يتظاهر بمعاملة الرحمة، فلن يكون أيضا جديرًا بالثناء عليه. أو إذا كان يعامل غيره معاملة طيبة لكي ينال منه فائدة فليس عمله هذا محمودًا، كما يمدح الشعراء الناس لكي ينالوا حظوة عندهم. ولكن إذا كانت المعاملة الحسنة تخضع لمنطق الدليل والبرهان وتنشأ نتيجة الخوف على أحد ولإفادته وبقصدِ إصلاحه فإنها ستؤدي إلى إرساء الأمن والسلام وتعدّ هذه المحاولة قيِّمة وعظيمة.

راحة النفس

والحال نفسها فيما يتعلق براحة النفس. وستعطى لراحة النفس درجة نظرًا إلى الهدف المرجو من ورائها. فلو كانت هي من أجل لذة النفس والكسل والكبر أو للاستمتاع بعيش الراحة فإنها سيئة، ولكن إذا كانت تخضع لحكمة ما وكانت إظهارًا للشكر فهي حسنة. مثلا إذا كان أحد ينام لكي يستعيد نشاطه فيعمل لله ولبني البشر بجهد أكثر فإن راحته هذه ممدوحة، وإذا كان يأكل لكي يقوى جسده فيخدم الدين والدنيا أكثر فإن عمله هذا أيضا ممدوح، وإذا كان يلبس لباسًا جيدًا أنيقًا ليظهر إحسان الله تعالى إليه، أو كان يحافظ على النظافة للغرض نفسه فهو عمل محبّذ. كذلك الذي تزهّد أي أعرض عن الدنيا وما فيها، فإذا كان يفعل ذلك لكي يثني عليه الناس فإنه فعلٌ سيئ جدًّا ولكنه لو كان يعرض عنها

لنفعِ الناس فهو عمل حسن، أما لو أعرض عنها حتى يتخذه الناس مرشدًا فإنه سيئ أيضا، أما لو كان يضحي من أجل الناس فعمله هذا ممدوح.

فلقد أُخبِرنا في هذه الآية أن معاقبة الناس أو الرحمة بهم، وقتل أحد أو التضحية بالنفس أو التمتع بالحياة إذا كان لله فهو عمل حسن وممدوح، وإن لم يكن لله فليس بحسن.

حياة النبي ﷺ

ينبغي أن ننظر إلى أعمال النبي ﷺ بهذا المنظار لنعرف هل كانت حياته لفائدة الناس أم لمنفعته الشخصية؟ وهل كان موته لنفسه أم لنفع الناس؟ وهل كانت أياديه ومننه لفائدته أم كانت لمنفعة الناس؟ فلو ثبت أن جميع الأعمال التي قام بها كانت للانتفاع الشخصي فلن تعدّ مزايا ولو ذكرنا عشرة آلاف منها. كذلك لو ثبت أن العقاب الذي أوقعه ﷺ بحق الآخرين كان نابعًا من غضبه وانتقامه فسيكون عمله هذا سيئا للغاية، ولكن لو أثبتنا أن كل ذلك كان لخير الناس، وكان عقابه ذلك مماثلا لعقاب الله تعالى عبادَه والذي يكون دومًا لفائدة الناس الآخرين، فإن عمله هذا سيكون ممدوحًا. كذلك لو ثبت أن النبي ﷺ قد قضى حياته كلها في الاستمتاع بالملذات لراحة نفسه فسيكون ذلك سيئًا، ولكن إذا أثبتنا أنه بذل حياته كلها في سبيل الله فستكون حياته هذه مقدسة. فلو كان موته لنفسه لكان سيئًا، ولكنه إذا كان لله لكان مقدسًا.

التضحية السيئة

اعلموا أن التضحية أيضا تتحول إلى سيئة في بعض الأحيان. لقد ورد في كتب تراثنا أن شخصًا جاء وانضم إلى الجيش الإسلامي وحارب بحماس مفرط. أثنى عليه الناس وقالوا بأنه يقاتل بروح الفداء والحماس، ولكن النبي ﷺ قال: إنه من أهل النار. تعجب هؤلاء الناس عند سماعهم قول النبي ﷺ فتبعه شخص منهم فرأى أن هذا المحارب أصيب بجروح فسأله لماذا كنت تحارب بهذا الحماس؟ قال: لم أحارب لأي هدف نبيل، إنما كنت أكن لهذا القوم بغضًا شديدًا، وهو ما دفعني لمقاتلتهم. فلم يعجب النبي ﷺ فعله مع أنه كان يقاتل في جانبه، فقال النبي ﷺ بأنه لم يقاتل للحق بل قاتلَ مدفوعًا بنفسانيته لذلك فإن فعله هذا مكروه.[٥]

وعليه فلو كان الهدف نبيلا والنية صالحة فإن إيقاع العقوبة بحق الآخرين محمود حينها ويكون الإحسان أيضا محمودا، ولكن إذا كان الهدف سيئا فالعقوبة تكون في غير محلها والإحسان أيضا يكون فاسدا.

قدسيَّة الرسول

إن ذكر الإحسان والتضحية يتضمن القدسية أيضا لأن القدسية هي النية الحسنة والعمل من أجل الآخرين مع مراعاة رضى الله تعالى. وأريد أن أذكر بعض الأمور الأساسية بهذا الخصوص.

[5] انظر البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم.

ادعاء القدسية

الأمر الأول والأهم هو الادعاء. وإذا كان الأمر يتعلق بالمصلحين فأول ما ينبغي مراعاته هو: هل أعلن هؤلاء المصلحون ما يُنسب إليهم من صلاح؟

أما النبي ﷺ فقد وجدنا إعلانه القداسة والنـــزاهة بكلمات واضحة. لقد أُمر النبي ﷺ من الله تعالى أن يعلن: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6] أي قدّم أمامهم هذه الحقيقة قائلا بأنني رُبيت فيكم وليدا ثم كبرت بين ظهرانيكم، ولقد لاحظتم أموري كلها واحداً واحدًا، فهل تستطيعون أن تقولوا لي بأنني كذبت عليكم مرةً أو خدعتكم؟ فإن لم أفعل ذلك قط، فكيف تستطيعون القول اليوم بأنني أخدعكم بهذه الدعوة. كان ادعاء النبي ﷺ أنه ليس بوسع أحد أن يتهمه بأي عيب، فكيف يمكنهم أن يقولوا بأنه كذب على الله؟ لم يردّ أعداؤه على ادعائه هذا مما دل على أنهم أيضا أقروا بتقدسه.

دليل آخر على صحة إعلانه القداسة

هناك شهادة أخرى وهي أيضا واردة في القرآن الكريم، وليست دليلا عند مَن لم يؤمن بالقرآن الكريم ولكن يثبت بها ادعاء النبي ﷺ بقداسته؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

[6] يونس: ١٧

يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[7]. لقد خاطبه الله قائلا بأننا نعلم أن الناس يكذّبونك ويصفونك بالخدّاع والمكّار والنصّاب، ويقولون بأنك تهدف إلى الوصول إلى الحكم أو تحاول نيل المنصب والجاه، وتحزنك هذه الأمور وتتألم منها، ولكن ليس لأنهم يسيئون إليك بل لأنهم يجحدون بآياتنا.

ومن الملاحظ أنه لا يستشيط أحد غضبًا ولا يظهر حماسه لو أسيء إلى دينه بقدر ما يثور إذا شُتم هو. ولكن الله تعالى يخبر هنا عن حالة نفس محمد ﷺ وهي أنه لا يبالي أبدًا مهما أسيء إليه، إلا أنه يريد ألا يجحد الناس بآيات الله ولا يتكلموا خلافًا لعظمتها، فإن حزنه وألمه لم يكن لذاته بل كان لله تعالى.

شهادته على قدسيته

والآن أقدم شهادة أخرى على قدسيته، وهي شهادته ﷺ. صحيحٌ أن شهادة المرء لنفسه لا تلقى اهتمامًا، إلا أنها شهادة عفوية بحيث لا يسع أحدا إنكارها.

لما تلقى النبي ﷺ الوحي الأول ذهب إلى ورقة بن نوفل الذي كان مسيحيًا. وأخذته إليه زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها ليستشيره النبي ﷺ في هذا الأمر، وذلك لوجود كتاب إلهامي لدى النصارى، أما

---

[7] الأَنعام: ٣٤

العرب فلم يكن لديهم شيء مثله. لقد ذكر له النبي ﷺ بأنني تلقيت مثل هذا الوحي. قال ورقة بأن قومك سيخرجونك من وطنك هذا، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. فلما سمع النبي ﷺ خرج من لسانه بشكل عفوي جدًّا: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟[8] وهذا يعني بأنني كنت ناصحًا للناس طول حياتي وساعيًا لخيرهم دومًا، فكيف يمكن إذن أن يخرجوني؟

لا شك أنها شهادته لنفسه ولكن يضطر كل عاقل إلى قبولها واعتبارها صادقة لأنها خرجت من لسانه في مناسبة لا يخطر في مثلها ببال أحد أن يتصنع شيئا بحيث يقول: هل يمكن أن يُخرج قومي مِن عندهم ناصحًا ومواسيًا مثلي؟ إنهم يحبونني ويتوددون إلي وينادونني بالصادق والأمين ويعرفون بأنني لهم ناصح أمين، مع كل ذلك أنى لهم أن يخرجوني من هنا، فلم ألحق بأحدهم أي أذًى ولم أخدع أحدًا ولم أضر بأحد.

فهذا الأمر شهادة على أن حياته كانت مقدسة قبل دعواه وبسبب ذلك لم يكن ليتصور أن قومه سيخرجونه من وطنه، أو لم يكن يرى أية حجة عند قومه لإخراجه.

---

8 مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

شهادة الزوجة

لما كانت الزوجة تحفظ كثيرا من أسرار زوجها، لذلك أقدّم شهادة زوجته على حياته الطاهرة العفيفة. لم يُدْلَ بهذه الشهادة على مرأى من الناس حتى يُخشى التصنع فيها، بل أدلي بها في البيت في معزل عن الناس.

لقد تزوج النبي ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة من سيدةٍ في الأربعين من عمرها. الرجل في الخامسة والعشرين يكون في عز شبابه والمرأة في الأربعين تسير نحو شيخوختها، والشاب في مثل هذا العمر يرفض بداية الزواج من امرأة أكبر منه سنًّا إلى هذه الدرجة، ولكن إذا تم الزواج فإنه يؤدي إلى مشاكل، وذلك لأن رغبات المرء في عمره هذا تختلف عن رغبات المرأة في عمرها المتقدم. لقد أعلن النبي ﷺ النبوة بعد ١٥ سنة من هذا الزواج حيث كان عمره ٤٠ وعمر خديجة رضي الله عنها ٥٥ عاما، أما ملخص هذه الأعوام الخمسة عشر فهو ما ذكرته السيدة خديجة رضي الله عنها عندما تلقى النبي ﷺ الوحي وخشي على نفسه حسب ظنه أنه شتان بينه وبين هذه الدرجة العظمى، فلما ذكر ذلك للسيدة خديجة قالت: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى

نَوَائِبِ الْحَقِّ."[9]، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك.[10]

هذه شهادة تلك المرأة التي تزوجت وعمرها أربعون سنة من رجل ابن خمسة وعشرين عامًا، والذي كان فقيرًا بينما كانت تملك مئات الألوف من الدنانير، ثم وضعت جلّ ثروتها في يد زوجها الذي وزعها على الفقراء. ففي مثل هذا الوضع لا بد أن تكون لديها عشرات الشكاوى ضده. ولكنها لما رأت أن النبي ﷺ قلق بشأن تحمّل هذه المسئولية التي ألقيت على عاتقه ردّت عليه بصورة عفوية: لا يمكن أن يسلط الله عليك الشياطين. ليس هناك أحفظ على أسرار المرء من زوجته، وهذه شهادة من حفظت أسرارًا عن قدسية النبي ﷺ، ولم تُدلِ بهذه الشهادة على الملأ بل نطقت بها دعمًا لزوجها، وكان ذلك على انفراد لطمأنته. وهذه شهادة كبيرة لا يسع أحدا إنكارها.

شهادة الأصدقاء

كانت هذه شهادة زوجته عن قداسته، ولكن بعض الناس يحسنون إلى زوجاتهم، إلا أن تعاملهم لا يتسم بالطيبة مع أصدقائهم ومعارفهم، لذا فقد يقول قائل: لو سلمنا جدلا أن حياة مؤسس

---

[9] البخاري، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي

[10] نور اليقين في سيرة سيد المرسلين لـــ: "محمد بن عفيفي"، باب: بدء الوحي والدعوة، مجلد١ ص٢٣، دار المعرفة، طبعة بيروت لبنان ٢٠٠٤.

الإسلام كانت طاهرة مع زوجته فلا يشكل هذا دليلا على أن حياته كانت حسنة وطاهرة مع الأصدقاء أيضا، لذلك أقدم شهادة بعض أصدقائه أيضا.

أقدم شهادة صديق آمن به، وآخر لم يؤمن به. أما الذي آمن فهو أبو بكر وإليكم شهادته. لما أعلن النبي الكريم ﷺ عن نبوته اشتهر بين الناس أنه أصيب بالجنون أو أنه مفتر. عندما أعلن رسول الله ﷺ النبوة كان أبو بكر خارج مكة في سفر، وكان جالسًا عند أحد أصدقائه لدى عودته من السفر إذ قالت إحدى إماء صديقه: هل سمعت عن الحدث العجيب، وهو أن محمدًا زَوج خديجة ادّعى أنه يتلقى وحيًا من الله وأنه نبي؟ فقام أبو بكر فورًا وجاء النبي ﷺ وطرق باب بيته، فلقيه النبي ﷺ وأراد أن يطلعه على دعواه إلا أنه قال له: جئت أسألك في أمر. هل أعلنت النبوة؟ أصحيحٌ ما يقال عنك أم لا؟ فقال النبي ﷺ: نعم هو صحيح. فقال أبو بكر: ما كنت أريد أكثر من هذا، إذ إنني أعرف يقينا أنك لم تكذب قطّ، لذلك فإنني أؤمن بك. كان النبي ﷺ يقول: مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إلَى الْإِسْلَامِ إلّا كَانَتْ فِيهِ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ وَنَظَرٌ وَتَرَدّدٌ، إلّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، مَا عَكَمَ عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ، وَمَا تَرَدّدَ فِيهِ.[11]

[11] السيرة النبوية لابن هشام، ذكر من أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر رضي الله عنه.

(هذه إشارة إلى الناس من خارج عائلة النبي ﷺ لأن السيدة خديجة وعلي وزيد بن حارثه- الذي رُبي في بيته طفلا- قد آمنوا به فورًا فلا يُعدّون من هؤلاء المشار إليهم في قول النبي ﷺ)

هذه شهادة أحد أصدقائه بحيث لم يطلب منه أي برهان ولا إثبات ولا معجزة، وإنما قال له: أخبرني، هل أعلنت هذا أم لا؟ وعندما تأكد من صحة هذا الخبر آمن به.

كان حكيم بن حزام أيضا صديقًا للنبي الكريم ﷺ ولم يؤمن به إلا قرب وفاته. ظل هذا الشخص يعارض النبي ﷺ ويعاديه طيلة ٢١ عامًا. ومع أنه لم يقبل دعوى النبي ﷺ إلا أنه كان يكن إخلاصًا للنبي ﷺ إلى درجة أنه عُرض مرة في مكة أغراض أحد الزعماء للبيع، وكانت فيها حلة جميلة ثمينة أعجب بها الناس، ولما رآها الحكيم قال: لن تناسب هذه إلا محمدًا ﷺ فاشتراها فجاء بها إلى المدينة وقدّمها هدية للنبي ﷺ.[12]

يظهر من إخلاصه هذا أنه كان يظنّ بأن النبي ﷺ مخطئ فيما ادعى، إلا أنه لم يكن يرى النبي ﷺ مخادعًا الناسَ بدعواه، ولأجل ذلك قطع مسافة ٣٠٠ ميلا إذ سافر من مكة إلى المدينة ليقدّم هذه الهدية الثمينة للنبي ﷺ مع أنه لم يكن يؤمن به.

[12] مسند أحمد، مسند المكيين، مسند حكيم بن حزام عن النبي ﷺ.

شهادة شخص محايد

يقال أحيانًا إن الصديق لا بد أن يشهد بحق صديقه، لذلك أقدِّم شهادة شخص محايد، وهذه الشهادة أدلت بها أمةٌ من إماء أبي طالب وهي شهادة تتعلق بطفولة النبي ﷺ. تقول هذه الأمة: لما انتقل إلى بيت عمه أبي طالب في الصغر، كان الأولاد الآخرون يتشاجرون فيما بينهم إلا أن محمدًا لم يشاركهم في هذه الأمور قط. كان جميع الأولاد إذا رأوا شيئًا للأكل والشرب هرعوا إليه، إلا أن محمدًا لم يكن ينظر إليه ولا يطلب شيئًا بل كان يكتفي بما يُعطَى له. وهذه شهادة عن وقاره وتحليه بعزة النفس والغنى والقناعة.

شهادة عدوّ لدود

قد يقول قائل بأن تلك الشهادة كانت تخص وقتًا معينًا وحالة معينة فلا يمكن أن تُعمّم، لذلك أقدم الآن شهادة أحد ألد أعداء النبي ﷺ وهي تغطي فترة ما بين صغر السن والكهولة. لقد اشترك هذا العدو في جميع أنواع معارضة النبي ﷺ حيث رشقه بالحجارة، وكاد المكايد لقتله أيضا، ألا وهو النضر بن الحارث، الذي كان أحد الأشخاص الـــ ١٩ الذين اشتركوا في مكيدة قتل النبي ﷺ. فلما بدأ الناس يأتون إلى مكة لدى سماعهم عن ادعاء النبي ﷺ وانتشرت أخبار دعواه، وكان قدوم عدد كبير من الناس متوقعًا لاقتراب موسم الحج، خاف

أهل مكة من أن الناس سيسألونهم عن النبي ﷺ، فماذا عساهم يجيبون؟ ولأجل ذلك عقدوا اجتماعًا اشترك فيه كبار زعماء قريش لكي يتوصلوا إلى ردّ موحد حتى لا يدلي كل واحد برأيه كيفما اتفق في نفس الموضوع فيصفَهم الناس بالكذب. لقد قُدّم في هذا المجلس عدة ردود وكان أحدها: قولوا بأنه ساحر كذّاب. فلما سمع ذلك النضر بن الحارث قام فقال:

لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلامًا حَدَثًا أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ به قُلْتُمْ: سَاحِرٌ، لا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ.[13]

أي لقد خطب فيهم النضر بكل حماس وقال: ينبغي أن تبحثوا عن كلام يتسم بشيء من المعقولية، لأن محمدًا ﷺ قد ولد فيكم وشبّ بين أيديكم، وكنتم تحبونه وتمدحون أخلاقه وتعدّونه أصدق شخص بينكم، وظللتم على هذه الحالة حتى شاخ وبدأ الشيب يخط شعره وادعى ما ادعاه، فمن يقبل قولكم الآن إذا قلتم بأنه كاذب؟ بل سيكذبكم الناس، لذلك ينبغي أن تبحثوا عن ردّ آخر غير هذا.

---

[13] انظر: دلائل النبوة للبيهقي، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز...، والسيرة لابن هشام، نصيحة النّضْر لقريش بالتّدَبّرِ فيما جاء بِهِ الرّسول ﷺ.

هذه شهادة عدو بل من ألد الأعداء. وما قُدِّمتْ هذه الشهادة تأييدًا للنبي ﷺ بل قُدّمت في مجلس كان قد عقد لمعارضة النبي ﷺ ومن أجل إضلال الناس عنه.

شهادة خادم

وبعض الناس يتعاملون مع أصدقائهم بالحسنى ويحسنون إلى زوجاتهم وإخوانهم أيضا، إلا أنهم يقسون على خدمهم، لذلك قد ينشأ عند أحد السؤال: كيف كان النبي ﷺ يتعامل مع الخدم؟ ولتبيان هذا الأمر أقدم شهادة شخص ظل منذ صغره يخدم النبي ﷺ وظل مع النبي ﷺ حتى وفاته، ألا وهو أنس بن مالك، وهو يقول: لم يغضب النبي ﷺ قط ولم ينظر إليّ بنظرة ساخطة مهما أسأت العمل[١٤]. ولم يطلب النبي ﷺ مني عملا قط لا أستطيع إنجازه، بل كان يعينني في كل ما يكلفني به من عمل، وكذلك لم يكن يقسو علي بكلامه.

شهادة شريك

وبعض الناس يتعاملون مع أصدقائهم وخدمهم معاملة حسنة ولكنهم إذا شاركوا أحدًا في الأموال والتجارة فضح أمرهم وانكشفت حقيقتهم. لذلك نختبر شهادة من تعاملوا مع النبي ﷺ.

---

[14] البخاري: كتاب الأدب، باب حسن الخلق.

كان قيس بن السائب شريكا للنبي ﷺ في التجارة. لم يُسلم هذا الشخص إلى مدة طويلة. جاء هذا الشخص إلى مكة بعد فتحها فأخبر أحد النبيَّ ﷺ أنه فلان. قال النبي ﷺ: إنني أعلم به منك لأنني كنت شريكا له في التجارة. فقال قيس: نعم الشريك لا يُداري ولا يُماري ولا يُشاري.[١٥]

شهادات الناس بعد وفاته

يمكن أن يقال بأنه كان شخصية كبيرة يهابه الناس في حياته، ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته، لذلك فأتناول تلك الشهادات التي أدلي بها فيما بعد وفاته، ولنر ماذا قيل عن النبي ﷺ.

شهادة زوجة أخرى

وأقدِّم شهادة إحدى زوجات النبي ﷺ وهي السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي إحدى زوجاته التسع. إذا كان لأحدٍ زوجتان أثيرت ضده بعض الشكاوى، ولكن كانت للنبي ﷺ ٩ زوجات تزوج بهن في شيخوخته، وهن اللواتي لم يأكلن ملء بطونهن في حياة النبي ﷺ. ولكن لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبي الكريم ﷺ قالت: كان خلقه القرآن[١٦]، أي كان النبي ﷺ يتحلى بجميع الأخلاق الحميدة الواردة في القرآن الكريم.

---

15 السيرة الحلبية، باب سفره إلى الشام ثانيا.

16 مسند أحمد، باقي مسند الانصار رضي الله عنهم.

كان حب عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ بلغ مبلغا عظيما، حيث شوهدت مرة وهي تأكل الخبز وعيناها تذرفان الدموع، فسُئلت عن سبب بكائها فقالت: وكيف لا أبكي وقد توفي النبي ﷺ ولم أُطعِمه خبزًا من الدقيق الناعم؟ والآن لا أقدر على ابتلاع هذا الخبز إذ يغتص بحلقومي، ولو كان النبي ﷺ حيًّا لأطعمته هذا الخبز.

ينسى الإنسان أعزَّ أحبابه في أيام الراحة واليسر ولكن عائشة رضي الله عنها التي ترمّلت في شبابها والتي لم تتمتع بأي ترف في حياة النبي الكريم ﷺ، ظلت تذكر أخلاقه ﷺ حتى أنها كلما وجدت شيئا نفيسًا قالت: يا ليت النبي الكريم ﷺ حيٌّ فأُقدّمه له.

شهادات الخلفاء

وأتناول الآن شهادات خلفاء النبي ﷺ. ما يحدث عمومًا في العالم هو أنه كلما قام شخص مقام غيره ذمّه ليُظهِر عظمةَ نفسه ورفعةَ شأنه على من سبقَه، اللهم إلا الذي كان يرتبط به بعلاقة أخلاقية وروحانية.

شهادة أبي بكر رضي الله عنه

لقد أصبح أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الأول للنبي ﷺ، ونرى في عصره أن تيار التمرّد قد سرى في العرب كلهم وامتنع الناس عن أداء الزكاة، فقيل له بأننا الآن في مواجهة هؤلاء لذلك ينبغي أن تقلع عن رغبتك في إنفاذ الجيش الذي كان النبي ﷺ قد أعدّه قبل وفاته، لأن الأَولى هو

القضاء على حالة التمرد، ثم يمكن إرسال هذا الجيش. ولكن قلب أبي بكر رضي الله عنه كان يمتلئ توقيرًا وتعظيمًا للنبي ﷺ حتى إنه قال: أنى لابن أبي قحافة أن يحبس جيشًا بعثه النبي ﷺ؟ والله لو أن العدو اقتحم المدينة وجرّ نساءنا في شوارعها لأنفذت الجيش الذي أمر به النبي ﷺ.[١٧]

يمكن أن يقول قائل أن هذا الحدث لا يثبت أنّ مؤسس الإسلام كان صادقًا في دعواه. نقول: لا شك أن هذا الحدث ليس كافيًا للاستدلال على ذلك ولكن الذي يثبت منه بشكل مؤكّد هو أنه كان صالحًا وإنسانًا تقيًّا جدًّا بحيث كان تلامذته يسعون لتنفيذ أقواله إلى أبعد الحدود.

شهادة عمر رضي الله عنه

والشهادة الثانية هي شهادة خليفته الثاني التي أدلى بها عند موته. فلما قربت وفاة عمر رضي الله عنه أبدى رغبة شديدة في أن يجد مكانًا قرب أقدام النبي ﷺ ليدفن فيه، فأرسل إلى السيدة عائشة رضي الله عنها يستأذنها أن يُدفن بجوار النبي ﷺ.[١٨]

كان عمر رضي الله عنه ذلك الرجل الذي يكتب عنه المؤرخون المسيحيون أنه لم يحكم أحد في العالم مثله. إنهم يسيئون إلى النبي الكريم ﷺ غير أنهم

[17] تاريخ الخلفاء، للسيوطي: فصل فيما وقع في خلافة أبي بكر. والبداية والنهاية: فصلٌ في تنفيذ جيش أسامة رضي الله عنه.

[18] البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ.

يثنون على عمر ﷺ. مثل هذا الشخص يتمنى عند موته بكل حسرة أن يجد مكانًا عند قدمي النبي ﷺ. فلو ظهر من أفعال النبي ﷺ أنه لم يقم بها ابتغاء مرضاة الله تعالى لما تمنّى شخص مثل عمر ﷺ- بعد بلوغه تلك الدرجة السامية- أن يجد مكانا عند قدمي النبي ﷺ.

شهادة عثمان ﷺ

والشهادة الثالثة التي أقدِّمها هي شهادة خليفته الثالث، ويظهر منها كم كان يكنّ للنبي ﷺ من توقير واحترام وتقدير عظيم!

لقد نشب تمردٌ في عهد عثمان ﷺ وكاد المتمردون لقتله. وفي هذا الوقت جاءه معاوية وقال له بأن المتمردين يريدون قتلك واختيار صحابي آخر خليفة لهم، واقترح أن يرسل كبار الصحابة خارج المدينة؛ ولكن سيدنا عثمان ﷺ- في هذه الأوضاع العصيبة، وحالة التمرد آخذة في الانتشار، وكان أيضا مهدّدًا بالقتل- قال: يا معاوية، كيف يُتوقع مني أنْ أُرسل هؤلاء الصحابة إلى خارج المدينة من أجل إنقاذ نفسي من الموت وقد كان النبي ﷺ قد جمعهم هنا؟!

وكأنه قدم التضحية بنفسه على إبعاد الصحابة خارج المدينة لأن النبي ﷺ كان قد جمعهم فيها.

هل يمكن أن ينشأ مثل هذا التقدير والاحترام في قلب من قضى حياته مع النبي الكريم ﷺ لو كان قد رأى فيه خداعًا أو غشًّا؟!

شهادة علي ﷺ

ولما كان عليّ ﷺ أقرب أقارب النبي ﷺ ويمكن أن تقدّم حياته كاملة دليلا على صدق النبي ﷺ، لذلك لا أرى ضرورة لذكر حدث معين منها.

نتيجة الشهادة

اعلموا أن الشهادة الصحيحة عن المرء هي التي يدلي بها معاصروه من الناس. فلقد أفادت شهادة زوجته أن أخلاقه كانت بالغة العظمة، وكذلك أفادت شهادة أصدقائه وأعدائه، ثم أفادت شهادة الخلفاء له في ما بعد وفاته، فهل يمكن ألا يُعتدّ بشهادة أولئك الذين كانوا موجودين في عصره وتُصدّق شهادة الذين أتوا من بعده؟! كلا، بل الشهادة الصحيحة هي التي يدلي بها المعاصرون للحدث. ويشهد جميع المعاصرين لمحمد ﷺ سواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء أنه كان شخصية مقدسة، فما من مبرر يتذرع به الذين أتوا بعد عصره حتى لا يسمّوه مقدّسًا.

غيرته لله

والبرهان التالي على قدسيته هو تلك الغيرة التي كان يبديها لله تعالى. وهناك حدث معروف يوضح مدى غيرته لله تعالى. في غزوة أحد جُرح عدد كبير من المسلمين والنبي الكريم ﷺ أيضا كان قد

أصيب بجروح بالغة حتى ظنّ العدو أنه قد نجح في قتله، ولأجل ذلك قال أحد رؤساء مكة بصوت عال في ميدان الحرب: هل فيكم محمد؟ فقال النبي للصحابة ألّا يردّوا عليه بشيء. وعندما لم يتلقّ جوابًا نادى: لقد قتلنا محمدًا. ثم نادى: هل فيكم أبو بكر؟ فقال النبي ﷺ: لا تردّوا عليه بشيء، فقال: قد قتلنا أبا بكر. ثم سأل هل فيكم عمر؟ أراد عمر أن يردّ عليه بكل حماس أنني موجود هنا لمعاقبتكم إلا أن النبي ﷺ منعه من الردّ، فقال: قد قتلنا عمر أيضا. ثم قال: أُعلُ هُبَل، أُعلُ هُبَل- و"هُبَل" كان أحد أصنام مكة. وقوله أعل هبل أي فليعظم شأن هبل لأننا أهلكنا اليوم جميع معارضي هذه الأصنام- وكان النبي ﷺ إلى هذا الحين قد أمر صحابته بعدم الرد نظرًا إلى كثرة الجرحى المسلمين وخوفًا من أن يعود الكفار ويهاجموا هؤلاء، ولكنه لما سمع كلامه الأخير قال: لماذا لا تردّون؟ قولوا: الله أعلى وأجل، الله أعلى وأجل.[١٩]

لاحظوا الآن، كم كان هذا الوقت عصيبًا وحساسًا حيث سقط عدد كبير من المسلمين جرحى ومُنيَ المسلمون بهزيمة في الظاهر، ففي هذا الوقت لم يسمح النبي ﷺ لأحد بأن ينفي خبر موته، إلا أنه لم يرض الالتزام بالسكوت على الإساءة إلى توحيد الله تعالى. وكانت النتيجة

---

19 البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

البديهية المتوقعة لهذا التصرف أن يعيد العدو الكرَّة ويقضي على البقية في هجمة واحدة، مع كل ذلك أمر ﷺ بالردّ فور سماعه الإساءة إلى الله.

الثمار التي أنتجها النبي الكريم ﷺ

البرهان الثالث على تقدسه هو تلك الثمار التي أنتجها، وأُقَدِّمُ مثالا على ذلك أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا رضي الله عنهم. إن أعدى الأعداء من المسيحيين الذين يشنّون هجمات قذرة على النبي ﷺ يقرّون بأن أبا بكر وعمر كانا رجلين رائعين، والسبب في ذلك أنهما قدما تضحيات عظيمة من أجل العالم بحيث يعترف بها الأعداء أيضا. ولكن عندما يعترف الأعداء أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا رجلين عظيمين نفعا العالم منافع كثيرة، فإننا نوجّه لهم هذا السؤال: هل يمكن لخدّاع ومُتّبِع لهواه- والعياذ بالله- أن يربي مثل هؤلاء الأناس النافعين؟! وهل يمكن لمن عينه على أموال الآخرين أن يصنع مثل هؤلاء الرجال الذين يضحون بنفسهم ونفيسهم في سبيل الله؟! لا يتخرج من مدرسة الخدّاع إلا الخداعون، ولا من متبعي الهوى إلا الفُسّاق. ولم يستطع الخدّاعون قط أن ينتجوا صلحاء، ولا يمكن للمنغمسين في ملذّاتهم أن يجعلوا من تلامذتهم أتقياء. ما كان لهؤلاء أن يتحلوا من خلال حضورهم في صحبة النبي ﷺ بهذه الفضائل كالتقوى والأمانة والإيثار والبساطة ومواساة الناس التي اعترف بها العالم إلا إذا كان النبي ﷺ يتحلى بها أكثر منهم آلاف

الأضعاف، وما كان لهم في هذه الحالة إلا أن يقولوا بأن ما تحلّوا به من هذه الأخلاق ما هو إلا قطرة من بحر محمد ﷺ.

لا شك أن حياة عثمان رضي الله عنه أيضا مبرأة من العيوب، وإن لم يقدرها الناس حق قدرها بسبب ملابسات تاريخية، ولكن عليًّا رضي الله عنه الذي كان الخليفة الرابع وقبل هذا كان قد تربى في حجر النبي ﷺ وظل في بيته وكان زوج ابنته، اعترف أعداء الإسلام بصلاحه وزهده وتفانيه وطهارته، ولكنني أسألهم: لو كان في النبي ﷺ ما تعترضون عليه وتشنّون بسببه هجمات على ذاته لما كان لعليٍّ رضي الله عنه أن يتحلى بتلك الأخلاق والصفات المذكورة. ولو كانت تلك الأخلاق والصفات ذاتية لعليٍّ رضي الله عنه فلماذا إذًا ظل عليٌّ مخلصًا وفيًّا للنبي الكريم ﷺ مع كونه على درجة عالية من الأخلاق العظيمة؟!

لم يُنشئ النبي ﷺ أربعة خلفاء فقط بل أنشأ ﷺ قومًا عظيمًا من المتمسكين بالعدل والقسط، حتى إن اليهود بل المسيحيين أيضا قد أرسلوا وفدًا إلى المسلمين لما علموا أنهم قرروا الخروج من بعض مناطق الشام وأبلغوهم بأننا لا نقبل حكم أهل ديانتنا المسيحيين وإنما نريد أن تبقوا هاهنا وسننصركم بكل ما في وسعنا لأن أنفسنا وأعراضنا وأموالنا ظلت محفوظة تحت رعايتكم.

والآن ينبغي أن تفكروا في أنه لو لم يكن محمد رسول الله ﷺ مقدسًا ولم يكن يتحلى بالقوة القدسية لما استطاع سكانٌ غير متحضرين من

جزيرة العرب من السراق والنهاب والذين كانوا يتفاخرون بالقمار وشرب الخمر أن يحدثوا مثل هذا التغيير الطيّب والعظيم وما كان لأرض العرب أن تصبح مفخرة للسماء.

الردود على اعتراضات هامة

هناك بعض الاعتراضات يروجها الأعداء بقصد الحطِّ من قداسة النبي ﷺ. وأرى مناسبًا في هذا السياق الردّ على ثلاثة منها.

يقول "موير": لا شك أن محمدًا (ﷺ) قد قام ببعض الإصلاحات أيضا إلا أنه روّج ثلاثة أمور خطيرة جدًّا كانت أخطر من خدماته، حتى أن كفة حسناته خفَّت بسببها؛ ألا وهي الطلاق وتعدد الزوجات والرق.

قضية الطلاق

لا حاجة إلى أن أقول شيئًا حول الطلاق، فقد مضى زمانٌ يُعتَرض عليه فيه بكل شدة، أما الآن فقد تبنت البلاد والشعوب هذه الفكرة وقرر العالم أن عدم جواز الطلاق كان ظلمًا عظيمًا، بل قطعت أميركا شوطًا أبعد من الأحكامَ الإسلامية في جواز الطلاق.

تعدد الزوجات

أما الاعتراض المتعلق بتعدد الزوجات، فليس الزواج من عدة زوجات أمرًا يعترض عليه، إنما الاعتراض على أن يكون الإنسان شهوانيًا، أي راغبًا في النساء رغبة عارمة غير جائزة.

لوازم تحقُّق الشهوانية

لا بد من وجود الأمور الآتية لتحقُّق الشهوانية:

١) الرجل الشهواني يعشق شرب الخمر

٢) يكون محبًّا للأطعمة الفاخرة

٣) يكون مولعًا بالأثاث والأمتعة الفاخرة

٤) يكون مغرمًا بمجالس الرقص والغناء

٥) يكون مشغوفًا بحب الأبكار من النساء

٦) يبحث عن نساء جميلات أكثر فأكثر

٧) يكون حريصًا على تنفيذ رغبات النساء

٨) لا يعدل بين النساء

٩) يقضي معظم أوقاته في صحبتهن.

علامات الرجل الشهواني

هذه هي علامات الرجل الشهواني، وما من رجل شهواني لا يحب شرب الخمر؛ لأن الشهوانية تقتضي التخلي عن الانشغال بالهموم والتفكير فيها، ولما كان كل إنسان مصابا بنوع أو بآخر من الهم والغم لذلك فإنه يريد أن يتغافل عن نفسه بشرب الخمر.

والرجل الشهواني يحتاج إلى الأطعمة المقوّية اللذيذة لكي تزداد بها شهوته. كما يحتاج إلى أثاث وأمتعة فاخرة لكي تتولد لديه أفكار شهوانية. ويحتاج إلى مجالس الرقص والغناء لتتقوى لديه الأفكار الشهوانية.

والرجل الشهواني يبحث عن الأبكار، وما من رجل شهواني يترك الأبكار ويميل إلى غيرهن، بل يبحث عن الفتيات الأصغر سنًّا من الأبكار لأنه يحب اللهو واللعب وهو ما يكثر في صغر السن، كما أن الرغبة الطبيعية في صغيرة السن تكون أكثر من الرغبة في المتقدمات في السن. ثم إن المطلقة أو الأرملة تكون قد رأت زوجًا فيما مضى، فإذا كان الثاني أضعف من الأول خشي ازدراءه في نظرها، لذلك لا يريد أن يتعرض لمثل هذا الامتحان.

ثم يتمنى الرجل الشهواني أن يستحوذ على أجمل النساء. كما يريد تلبية رغبات المرأة من أجل إسعادها حتى يستميلها إليه. ومثله لا يستطيع أن يعدل بين النساء لأنه يترك واحدة ليميل إلى الثانية، ويترك الثانية ليميل إلى الثالثة، لأن التوجه إلى جميعهن دفعة واحدة يفسد متعته. باختصار، إن الرجل الشهواني يحب أن يقضي معظم أوقاته مع النساء، لأنه بدون ذلك لا يمكن إشباع رغباته الشهوانية.

هذه هي الأمور التسعة التي لا يمكن أن يعدّ أحد شهوانيًا بدونها أو بدون بعضها. والآن تعالوا نرَ إذا كانت هذه الأمور موجودة في النبي ﷺ أم لا؟

شرب الخمر

الأمر الأول هو شرب الخمر. إن محمدًا ﷺ وحده منع شرب الخمر وحرّمه حرمة قطعية، أما الأقوام السابقة فقد حاولت تحديد استخدامه إلا أنه لم يسعَ دين لتحريمه مطلقًا إلا الإسلام. فلو كان بالنبي ﷺ شائبة من الميل إلى المتع الدنيوية ووجد قومه يشربون الخمر خمس مرات لأمرهم بشربها ثماني مرات، وإذا وجدهم يشربون ثماني مرات لأمرهم بشربها ١٢ مرة، ولكنه حرّم الخمر تحريمًا قطعيًا. لا يسع أحدًا القول بأنه حرّم الخمر حتى لا يعترض الناس على تقدسه، وذلك لأن الناس في بلده بل في العالم كله في ذلك العصر لم يكونوا يحسبون تعاطي الخمر أمرًا ينافي قداسة أحد، إذ كان كهّان العرب ومَوَابِذَةُ[20] الفرس وقسس روما وبانديتات الهند يتسابقون في شرب الخمر وما كانوا يعدّونه مناقضًا للقداسة، بل كان يُعَدّ جزءًا من عباداتهم وذريعةً لبعض رياضاتهم الروحية. لا يمكن أن تخطر ببال أحد فكرة تحريم شرب الخمر في ظلّ الأوضاع المذكورة. فلو كانت بالنبي ﷺ شائبة ميل إلى المتع الدنيوية

[20] زعماء عابدي النار. (المترجم)

كما يزعم أعداؤه لما حرّم الخمر، بل لأقرّ ما كان رائجًا في بلده وصار جزءًا من الفطرة لكل صغير وكبير.

ولقائل أن يقول: تستخدم الخمر لينسى الإنسان همومَه، فلأن النبي كان بعيدًا عن الهموم فلم يكن بحاجة إلى الخمر للتمتع بمتع الدنيا.

هذا الدليل أسخف وأتفه من سابقه لأن حياته ﷺ كانت حافلة بالهموم والآلام، وكانت سلسلة متواصلة من أحداث مؤلمة ومصائب مميتة. لقد كان ﷺ كالشوكة في عين الأعداء منذ إعلانه عن نبوته، وبات عرضة لهجمات الأقارب والأباعد. لم يكن الناس يتلذذون بإيذائه فحسب، بل كانوا يعدّون إيلامه مدعاة للثواب في الدارين. لم يكن أهل مكة فقط يعدونه خطرًا عليهم، بل مشركو العرب جميعا كانوا واليهود والنصارى أيضا كانوا يعتبرونه خطرًا على دينهم وشعبهم. فكان سيف كل واحد مسلولا ضده، ولسان كل واحد مبسوطًا للنيل من عرضه، وكل عين كانت ترمي تجاهه بشرر الغضب والسخط. ولم ينعم ﷺ بالأمن والسلام بعد أن فُتحتْ على يده الجزيرة العربية كلها، فقد بدأت الحكومة الرومية عملياتها المعادية، وأصدر ملك الفرس أوامر بقتله؛ أما الأعداء الداخليون، أي المنافقون فقد بدأوا حياكة مكايدهم من الداخل، وكأنهم قد أعدّوا له سياجًا مليئًا بالنار المشتعلة. لم يكن ينعم ﷺ بلحظة واحدة من الراحة واليسر طوال حياته، ولما حانت وفاته كان يعدّ جيشًا لمواجهة عدوٍّ كبير له. لو كان مكانه أحدٌ آخر لاختلّ صوابه

في مواجهة هذه المصائب والآلام، أما هو فقد كان يواجه هذه المشاكل بكل شجاعة. كانت هناك إمكانية كبيرة أن يجيز شربَ الخمر لنسيان الهموم فحسب حتى ولو كان معرضًا عن المتع الدنيوية الأخرى، إلا أنه حرّم الخمر حرمة قطعية. فمن ذا الذي يقول بأنه كان بعيدًا عن الهموم ولأجل ذلك حرّم الخمر؟

الأطعمة الفاخرة

الراغب في المتع الدنيوية يعشق الأطعمة الفاخرة، بل إنه يأكل ألذ الأطعمة وأشهى الأغذية المقوية لتتولد لديه شهوة أكثر، ولكن انظروا إلى حالة بيت محمد ﷺ إذ كانت به فاقة يوم وفاته، وخلال حياته كان يضطر أحيانًا إلى ربط حجرٍ على بطنه لتخفيف الشعور بالجوع. كان ينفق على حاجات الإسلام ما يأتيه من مال. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها إنه حدث عشرات المرات أننا لم نجد شيئًا للأكل، فأكلنا التمر وشربنا الماء، وأحيانًا شربنا الماء فقط، فهل يمكن أن يُسمى منغمسًا في الملذات مثلُ هذا الشخص الذي كانت أحوال طعامه وشرابه على النحو المذكور؟

الأثاث الفاخر

الراغب في المتع الدنيوية يجمع الأثاث الفاخر ليزداد متعةً، ولكن كانت حالة بيوت النبي ﷺ بسيطة جدًّا بحيث لم يكن في بعض بيوته إلا

فروة الأغنام التي ينام عليه هو وزوجته. تقول عائشة رضي الله عنها بأنه كان في بيتنا فراش واحد ونضطر إلى أن ننام عليه معًا، فلما كان النبي ﷺ يستيقظ ليلا للصلاة فكان يصلي على ذلك الفراش، وكنت أضطر في هذه الحالة إلى ثني رجليّ.

الأبكار من النساء

إن المتمتع بالملذات الدنيوية يكون مولعًا بالأبكار من النساء. ولكن النبي ﷺ لم يتزوج من بكر بعد أن حاز الـــمُلك. صحيح أنه تزوج من بكر واحدة في مكة ولكنه لما حاز الملك لم يتزوج من بكر واحدة. أَمَا كان سيتزوج من أبكار لو كان متطلعًا إلى المتع الدنيوية؟ لقد عرضتْ بعض الأبكار أنفسهن عليه ليتزوج بهن إلا أنه لم يفعل ذلك بل زوجهن من آخرين.

البحث عن أجمل النساء

إن المنغمس في الملذات يبحث دائمًا عن امرأة ثانية أجمل من الأولى لتشبع شهوته أكثر من زوجاته السابقات. ولكن الجميع متفقون على أنه لم يكن للنبي ﷺ زوجة تماثل عائشة رضي الله عنها، فلو كان مغرمًا بالمتع الدنيوية لكانت النساء اللواتي تزوج بهن بعد عائشة أجمل منها، ولكن يكتب عدو لدود مثل أرونغ ما يلي:

كان النبي شغوفًا بهذه الزوجة المختارة (عائشة رضي الله عنها)- التي تزوج بها في عنفوان شبابها- أكثر من جميع زوجاته التي تزوج بهن بعدها.[٢١]

هذه شهادة عدو بل عدو لدود إلى أقصى الحدود. فلو كان النبي ﷺ متطلعًا إلى المتع الدنيوية لبحث بعد عائشة عن نساء أجمل منها وأكثر شبابًا، ولكنه لم يفعل ذلك بل تزوج من نساء لم يكن يوازين عائشة في عمرها ولا جمالها الظاهري. وقد تزوج بهن مع أنه كان يحب عائشة لإخلاص والدها ولزهد عائشة وتقواها، فهل يمكن أن يعدّ ذلك انغماسا في الملذات؟

المزامير

للمزامير والآلات الموسيقية علاقة قوية بالتمتع بمتع الدنيا. أما النبي ﷺ فقال عنها بأنها آلات الشيطان. بعض الناس ليسوا بالمنغمسين في الملذات الدنيوية ولا يستمعون للمزامير، ولكن ما من شخصٍ مغرمٍ بالمتع الدنيوية إلا ويستمع للمزامير، أما سيدنا محمد ﷺ فهو ذلك الإنسان الذي منع استخدام المزامير. فلو كان راغبًا في المتع الدنيوية— والعياذ بالله- لما صدر منه ذلك.

---

21 Mohammed And His Successors By Washington Irving Vol:1, P:106 ABI Prints Publishing Co, New Delhi.

الحرص على تنفيذ رغبات النساء

المولع بملذات الدنيا يحرص على تنفيذ رغبات النساء، ولكن لما فتحت حصون خيبر وبدأت أموال الجزية تأتيه ﷺ بشكل معقول وأخذت الثروةُ تدخل بيوت المسلمين وأصبحوا يتمتعون برغد العيش، وقع في قلوب بعض زوجات النبي ﷺ اللواتي كن من عائلات ثرية أهن يعانين ضيق العيش، و لم يشكين سابقًا، أما الآن فقد أخذت ترد الأموال وتكثر وتوزع على الناس كلهم فينبغي أن يتخلصن من ضيق العيش ويتمتعن بشيء من الحياة الرغيدة. إن رد هذا الشخص- الذي يُتهم بأنه كان مولعًا بملذات الدنيا ومتعها، والعياذ بالله، وأنه قضى عمره في صحبة النساء- مذكورٌ في القرآن بالكلمات الآتية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢٢]. أي يقول الله تعالى: يا أيها النبي قل لزوجاتك هؤلاء إن كُنْتنَّ تبغينَ أموال الدنيا وزينتها فتعالين أعطيكن المال، ولكنكن لن تبقين زوجاتٍ لي في تلك الحالة، بل ينبغي أن تنفصلن عني بعد أخذ الأموال والثروات. ولكن إن كنتن تحببن الله ورسوله ﷺ وتردن خير

22 الأحزاب: ٢٩-٣٠

الآخرة فلا تطالبن بهذه الأموال، وعليكن أن تتذكرن أن الله تعالى قد جعل أجورًا عظيمة للمتقيدات منكن بأحكام الله تعالى تقيدا كاملا.

وملخص هذا الرد هو أنكن لن تتلقين مالا ما دمتن زوجات لي أو خلال حياتي، وإذا كنتن تردن الأموال والثروات في حياتي فانفصلن عني بالطلاق لأن مسئولياتي الدينية لا تتحمل حياة الأثرياء. ولكن إذا صبرتنّ وآثرتنّ معي خدمة الدين فستنلن الأموال وبكثرة كثيرة ولكن بعد وفاتي، فلن تنلن شيئًا في حياتي. ولقد تلقت زوجات النبي ﷺ أموالاً كثيرة ولكن بعد وفاته.

لاحظوا الآن، هل يمكن لمن يرفض رغبات نسائه بهذه الطريقة أن يسمى بالمنغمس في الملذات الدنيوية؟ وهل يسع الرجل المتهافت على الدنيا أن يقول عند سماع رغبة نسائه في الأموال وزينة الدنيا أن ينفصلن عنه بالطلاق؟!

عدم العدل بين النساء

ثم المتهافت على ملذات الدنيا لا يعدل بين نسائه بل يميل إلى التي يراها أجمل ويعرض عن الأخريات، ولكن النبي الكريم ﷺ في حالة مرضه أيضا كان ينتقل واضعًا يديه على أكتاف الناس قاصدًا بيت الزوجة التي جاء دورها، وظلّ يفعل ذلك حتى قبل ثلاثة أيام من وفاته، فلما رأت فاطمة رضي الله عنها حالته هذه بكت وقالت زوجاته أيضا أن يظل في بيت إحدى نسائه وذلك بطيب خاطرهن، فأقام في بيت

واحد. فمن يسعه أن يسمي منغمسًا في الملذات مَن كان يحرص على العدل بين نسائه إلى هذه الدرجة بحيث يقصد بيت من يحين دورها من زوجاته حتى في مرضه الذي مات فيه؟!

قضاء معظم الأوقات بين النساء

والمولع بالـمُتَع الدنيوية يقضي معظم أوقاته في صحبة النساء. أما النبي ﷺ فكان يظل خارج بيته من الصباح إلى المساء، فإذا عاد إلى البيت مساء أكل الطعام ولجأ إلى الفراش، ثم استيقظ ليلا ليتعبد لله تعالى. فأي وقت كان يجده في برنامجه اليومي المكثف لإشباع الرغبة في التمتع بملذات الدنيا؟

الهدف من زيجات النبي الكريم ﷺ

لا يمكن التذرع بزيجاته العديدة لاتهامه بأنه كان منغمسًا في الملذات، والعياذ بالله، بل ينبغي أن نرى لأي غرض تزوج هذه الزيجات كلها، أتزوجها لله تعالى أم لنفسه؟ إذا ثبت أنه تزوجها لوجه الله تعالى فلا يعدّ منغمسًا في الملذات الدنيوية. ولقد أثبتُّ أن زواجه من أكثر من زوجة لم يكن إشباعًا لرغبات النفس لأنه لم يُشبع تلك الرغبات، بل كان لها سبب آخر وهو أنه بُعث في قوم يجهل رجاله ونساؤه أمور الشريعة، وكانت مهمته تنفيذ أمور الشريعة فيهم، فتزوج من نساءٍ من عائلات مختلفة وذلك لكي يتعلمن من الدين ما ينفع النساء ويعلّمنه مَن وراءهن، ولم

يكن زواجه إلا أمرا قام به لوجه الله. ولم يكن زواجه من نساء عديدات ثم قيامه بالعدل بينهن انغماسًا في الملذات بل كان تضحية كبيرة.

والآن بعد أن أثبتُّ أن معاملته مع نسائه لم تكن انغماسًا في الملذات بل كانت تضحية عظيمة، صار من السهل أن نفهم أن الله أجاز تعدد الزوجات لأولئك الرجال من أمته الذين يستطيعون معاملتهن مثل معاملة النبي ﷺ مع زوجاته، فلم يؤد هذا الحكم إلى وضع أساس الظلم بل فُتح بذلك باب لتضحية كبيرة من أجل الرقي الدنيوي ولخطة عظيمة من أجل تحسين الحالة الأخلاقية لأهل البلد.

الرقّ

أما الاعتراض المتعلق بالرق، فلا حاجة بي إلى الكلام الكثير حوله، لأنها قضية علمية تحتاج إلى بحث شامل حول جوانبها الكثيرة. فأتّبع الآن طريقًا نزيها ومستقيمًا لحل هذه القضية. يقال بأن النبي ﷺ بترويجه الرق ظلم العالم ظلمًا عظيمًا.

أقول: تعالوا نمعن النظر في حياته لنرى إذا كان يرسخ العبودية أم كان يحمي العبيد؟ ولنرى ما إذا كان العبيد أعداءه أم أصدقاءه؟ وذلك لأن كل فئة أدرى بمنافعها من غيرها.

بدايةً لفهم الأمر أذكر لكم حدثًا من فترة شبابه. كان عمر النبي ﷺ خمسًا وعشرين سنة عندما تزوج من السيدة خديجة رضي الله عنها،

وفي هذا العمر تغزو ذهن الإنسان أفكار الحكم والسيطرة. بعد زواجه ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها سلمت له جل أموالها وعبيدها، وأول ما فعله النبي ﷺ هو أنه حرّر جميع العبيد. أخبروني الآن هل كان هذا الشخص- الذي قام بمثل هذا العمل في عز شبابه بعد حيازته الثروة والعبيد- يرسخ العبودية أم يحمي العبيد؟

رأي العبيد

هناك مثل مشهور يقول ما معناه: المرأة التي تتظاهر بالحب للولد أكثر من أمه فهي ماكرة. والبديهي أنه ﷺ لا يمكن أن يكون أكثر اهتمامًا بحرّيّة العبيد من العبيد أنفسهم. فلننظر ما هو رأي العبيد في النبي الكريم ﷺ. إذا كان العبيد يعدّونه محسنًا إليهم فلا بد من التسليم بأنه كان محسنًا إليهم و لم يكن محبًّا للعبودية.

وأذكر لكم حادثًا يوضح حب العبيد للنبي ﷺ. لقد كان عدد الذين آمنوا به خلال السنوات السبع الأولى من إعلانه النبوة هو ٤٠ شخصًا، وكان عدد العبيد أو أولاد العبيد من بينهم هو ١٥ شخصا، أي كان ٣٣% من المؤمنين إلى ذلك الوقت من العبيد. أما إذا حسبنا، نظرًا إلى سكان مكة كلها، فيمكننا القول بأن العبيد كانوا يمثلون ٩٠% من المؤمنين الأوائل، وذلك لأن عدد سكان مكة كان يتراوح آنذاك بين ١٠ إلى ١٢ ألفًا، ولقد آمن ٤٠ أو ٥٠ منهم فقط، أما العبيد فلم يكن

يزيد عددهم عن ٥٠٠ أو ٦٠٠، أفلم يكن عجيبًا أن يؤمن ٣٠ أو ٣٥ فقط من بين ١٠ إلى ١٢ ألفا في حين يؤمن ١٥ أو ١٦ من بين ٥٠٠ أو ٦٠٠ فقط؟ أليس إيمان العبيد بالنبي ﷺ بهذه الكثرة دليلا على أنهم كانوا يعدّونه مخلّصًا لهم؟

تعرض العبيد لأشد التعذيب

اعلموا أن الذين تعرضوا لأشد الإيذاء والتعذيب بعد إيمانهم بالنبي ﷺ هم العبيد.

خباب رضي الله عنه

كان خباب بن الأرت عبدًا يعمل حدّادًا، وقد آمن بالنبي ﷺ في بداية الإسلام المبكّرة. وكان الكفار يذيقونه أشد ألوان العذاب إذ كانوا يخرجون الجمر من موقده، ويلقونه عليه، ثم يلقون على صدره حجرا كبيرًا حتى لا يستطيع الحراك. كما كانوا يرفضون أن يؤتوه أجره. وعلى الرغم من ذلك لم يتزعزع إيمانه لحظة واحدة، بل ظل ثابتًا عليه بكل قوة وشجاعة. وظلت آثار الحرق على ظهره طول عمره، ولقد ذكر مرة في خلافة عمر رضي الله عنه المصائب التي تحملها في سبيل الإسلام، فقال له عمر رضي الله عنه: أَرِنا ظهرك، فكشف عن ظهره فإذا به آثار بيضاء تشبه البرص.[٢٣]

---

[23] الاستيعاب، باب خباب ج٢ ص٢١-٢٢ طبعة بيروت ١٩٩٥.

لاحظوا الآن، لو كان محمد ﷺ جاء لترويج الرق لكان ينبغي أن يتأهب خباب لقطع عنقه بدلا من أن يقبل التقلب على الجمرات المشتعلة بسبب الإيمان به ﷺ.

زيد رضي الله عنه

وهناك مملوك آخر اسمه زيد بن حارثة الذي كان ينتمي إلى إحدى القبائل المسيحية. أُسِر زيد في إحدى المعارك وجُعل عبدًا، وبيع كعبد مرارًا حتى اشترته السيدة خديجة التي بدورها سلمته مع كل عقاراتها إلى النبي ﷺ والذي حرّره بدوره. فلما علم أقاربه أنه في مكة قدم والد زيد وعمه إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يُعتق زيدًا، فقال الرسول ﷺ: لقد أعتقت زيدًا فإنه حرٌّ ويمكنه أن يذهب حيثما شاء. فقال له أبوه أن يستعد للعودة معه، فأجاب زيد: لا شك أنني ممتنّ بحبك وإحسانك إليّ، ولكن ليس في العالم شخص أحب إليّ من محمد ﷺ لذلك لا أطيق مفارقته.

لاحظوا الآن، يؤتى بشاب أسير تملأ قلبه نقوش ذكريات والديه، ولكن عندما يأتيه والده ويطلب منه الذهاب معه يقول له بأنه لا يروق له شيء أكثر من صحبة النبي ﷺ، ثم يؤمن هذا العبد به ﷺ عند إعلانه النبوة ويؤدي حق هذه الصحبة بالتضحية بنفسه.

أخبروني الآن هل يمكن لعبد أن يكنّ مثل هذا الحب العظيم لشخص كان يروّج العبودية؟

بلال رضي الله عنه

وعبد آخر اسمه بلال الذي كان عبدًا مملوكًا لأمية بن خلف أحد ألد أعداء النبي ﷺ، وقد آمن بلال بالنبي ﷺ في أوائل عهده. كان سيده أمية يلقيه على الرمال الحارة ويطالبه بإلحاح أن يرجع عن إيمانه بالنبي ﷺ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك.

ليت هؤلاء يتدبرون الآن أنه لو كان النبي الكريم ﷺ ظالـــمًا للعبيد لكان بالإمكان أن يتجاسر بلال ضد النبي ﷺ لكونه في بيت أعدى أعداء النبي ﷺ. ولكنه على الرغم من مكوثه في بيت مثل هذا العدو وعلى الرغم من سماعه كل الكلام المعادي، ظل متمسكًا بإيمانه بالنبي ﷺ وتحمل أذًى كثيرًا في هذا السبيل، وبسبب ذلك كان سيده يلقيه على الرمال الحارة. وكان بلال لا يعرف العربية جيدًا، لذلك كان يكتفي بقوله: أَحَد، أَحَد؛[24] أي أن الله تعالى أحد لا شريك له. فكان سيده يصبّ عليه المزيد من العذاب، ويربط قدميه بالحبل ويسلمه لشباب مكة ليجرّوه في شوارعها حتى ينسلخ جلد ظهره ومع كل ذلك

---

[24] السيرة لابن هشام، ج١ ص ٣٣٩-٣٤٠ طبعة مصر ١٩٣٦

لم يكن لتزول عنه نشوة حب النبي ﷺ. وكانت حالته الإيمانية قد ازدادت وارتقت أكثر بكثير عند نهاية ضربهم له.

لاحظوا الآن، كيف يمكن أن يمتلئ قلبه بمثل هذا الحب لو لم يكن يرى محمدًا ﷺ حاميًا للعبيد ومحررًا لهم. وما الذي كان يستميله نحو النبي ﷺ غير هذا الحب وهو مقيم في بيت عدوّ لدود لمحمد ﷺ.

سمية رضي الله عنها

الشخصية الرابعة من بين العبيد أَمَةٌ اسمها سُميّة، وكان أبو جهل يعذبها عذابًا شديدًا لترتد عن الإسلام، ولكنها ظلت متمسكة بإيمانها. فطعنها أبو جهل في فرجها وهو في ثورة الغضب، فاستُشهدت. فلقد تخلت عن حياتها و لم تتخلّ عن الإيمان بمحمد ﷺ.

لاحظوا الآن، لقد قدمت الإماء المسلمات– اللواتي كنّ في بيوت أعدى أعداء النبي ﷺ– تضحيات عظيمة من أجل التمسك بالإيمان بالنبي ﷺ ناهيك عن العبيد من الرجال. فلو رأين أن النبي ﷺ ليس عدوًّا للعبودية بل يروج لها لما ضحّين بأنفسهن مع كونهن نساء.

عمار رضي الله عنه

والشخصية الخامسة هو عمار الذي كان ابن سمية، وهو أيضا كان يُلْقَى على الرمال الحارة.

صهيب رضي الله عنه

كان أحد العبيد يُدعى صهيبًا الذي كان قد اختُطف من الروم وجيء به إلى هناك، كان مملوكًا لعبد الله بن جدعان الذي حرّره لاحقًا، ولكنه قبل ذلك قد تعرض لصنوف من التعذيب لإيمانه بالنبي ﷺ.

أبو فكيهة رضي الله عنه

كان أيضا من العبيد وآمن بالنبي ﷺ قديمًا في أوائل عهده. كان يبطح في الرمضاء. وفي إحدى المرات رُبط من رجله وسُحِل، ومَرّ به حيوان فقال له سيده: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك، فخنقه خنقًا شديدًا ثم أتى بصخرة فوضعها على صدره حتى دلع لسانه فظنوه قد مات، ولم يستعد وعيه إلا بعد تدليكٍ وتطبيب كثير.[٢٥]

لبينة رضي الله عنها

كانت لبينة من الإماء فأسلمت في أيام الإسلام الأولى، وكان عمر رضي الله عنه قبل إسلامه يعذبها بسبب إسلامها إلا أنها بقيت متمسكة به.

زنيرة رضي الله عنها

كانت زنيرة أيضا من الإماء وآمنت بالنبي ﷺ في بداية عهد الإسلام. كان عمر رضي الله عنه قبل إسلامه يعذبها، كما ضربها أبو جهل ففقأ عينها، مع

[25] أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٥ ص٢٧٣ طبعة الرياض ١٢٨٠هـ.

كل ذلك لم ترتد عن الإيمان بالرسول الكريم ﷺ، كان أبو جهل كلما رآها قال لها في غضب: هل تَردَّينا إلى درجة أن تكون زنيرة قد آمنت بالدين الحق ونحن لم نؤمن؟!

نهدية وأم عبيس رضي الله عنهما

وكان هناك أَمتان أُخريان إحداهما تُدعى نهدية والأخرى أُم عبيس، وقد أسلمتا في الفترة المكية، وقد تحملتا بسبب إسلامهما مصائب كثيرة.

عامر بن فهيرة رضي الله عنه

كان عامر بن فُهيرة عبدا آخر أعتقه أبو بكر رضي الله عنه وكان قد أوذي بسبب إسلامه إيذاء شديدا.

حمامة رضي الله عنها

وكانت حمامة والدة بلال، أيضا من المسلمات اللاتي تعرضن للاضطهاد الشديد نتيجة إسلامهن.

كان هناك عبيد وإماء آخرون آمنوا بالنبي ﷺ وبالتالي تعرضوا لشتى أنواع العذاب الشديد نتيجة إسلامهم.

باختصار، لقد آمن ٤٠ شخصا بالنبي الكريم ﷺ في الأعوام السبعة الأوائل من نبوته، و١٤ أو ١٥ منهم كانوا عبيدًا وقد تحمّلوا مصائب

أكثر من الأحرار. فلو كان النبي ﷺ جاء لترويج العبودية لكان هؤلاء أعداءه الألداء لا من المؤمنين به.

مواساة عبيدٍ غير مسلمين للنبي ﷺ

إضافة إلى العبيد والإماء الذين آمنوا بالنبي ﷺ كان معظم عبيد مكة وإمائها يكنّون مواساة للنبي ﷺ، فكان سبب إيمان حمزة رضي الله عنه أمته غير المسلمة، وتفصيل ذلك أن أبا جهل سبّ النبي ﷺ وهبّ لضربه وآذاه أشد الإيذاء. كان حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ ولم يكن قد آمن به، وكانت إحدى إمائه ترى ما يجري مع النبي ﷺ فآلمها ذلك الحدث وضايقها طوال النهار.

فلما رجع حمزة رضي الله عنه في المساء دخل بيته، فوجدتْ مولاتُه هذه فرصةً وقالت: تتظاهر وكأنك رجل شجاع، ولا تعرف كيف آذى أبو جهل ابنَ أخيك؟

كان حمزة رضي الله عنه رجلا يحب القنص ويقضي معظم نهاره متجولا هنا وهناك، ولم يكن يعرف ما يحدث حوله. فلما سمع حمزة رضي الله عنه هذا الكلام مِن فم خادمة في البيت ذاب قلبُه وثارت حميته، فخرج حاملا القوس بيده وجاء إلى حيث كان رؤساء مكة يجلسون. كانت هذه الأَمَة قد ذكرت له ما حدث بطريقة أثارت غضبه ومشاعره بشدة فانفعل حتى لم يقدر على الكلام، فجاء ووقف مستندا إلى جدار متكئًا على قوسه. كان يحاول

أن يتكلم ولكن الكلمات لم تخرج من فمه من شدة الغم. وإذ ذاك رآه أبو جهل فقال له: ما بك يا حمزة؟ تقف كالمستعد للقتال مع أحد. فما أن سمع حمزة رضي الله عنه منه هذا الكلام حتى انقض عليه، فلطمه على وجهه وقال له: أما آن لمظالمك أن تنتهي الآن؟ لقد آذيت محمدًا أشد الإيذاء. أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟! فرُدَّ عليِّ ذلك إن استطعت.

كان أبو جهل أيضا من رؤساء مكة فهب يدافع عن نفسه ولكن لما رأى الناس أن هذه الخصومة ستحرق مكة كلها أصلحوا بينهما. ومنذ ذلك اليوم تنبّه حمزة رضي الله عنه إلى الإسلام، وبعد التفكير ليوم أو يومين وصل إلى القرار بأن الإسلام دين حق، فأعلن إسلامه.[٢٦]

كذلك لما توجه النبي ﷺ إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام ورجع منها جريحًا، ففي هذه الحالة أيضا واساه أحد العبيد ورقّ له قلبه وظل يبكي لحاله.

باختصار، كان جميع العبيد يعلمون أن النبي ﷺ جاء ليحررهم من العبودية و لم يأت ليقوي سلاسلها أكثر، لذلك كان جميع هؤلاء يحبونه ويواسونه. وإن إيمانهم في بداية الإسلام وتحملهم أشد أنواع العذاب ووقوفهم مع النبي ﷺ حتى آخر حياتهم لدليل على أن جميع عبيد مكة وإمائها يعلمون أن تعليم محمد رسول الله ﷺ كفيل بفك أسرهم وتحرير العبيد كلهم، ولأجل ذلك آمن به كل من كان يتمتع بفهم وإدراك.

[26] السيرة النبوية لابن هشام ج٢، إسلام حمزة رضي الله عنه.

ومن لم يستطع الإيمان به ظل يبدي مواساته له. أفليس من العجيب أن أصحاب الشأن يعتبرون النبي ﷺ محرِّرًا للعبيد كلهم، بينما يعترض الذين لم يكونوا موجودين هناك ولا علاقة لهم ولم يساهموا في إعتاق العبيد شيئا، فيتهمون النبي ﷺ بخصوص العبودية؟!

إضافة إلى هذه الخطوة العملية ينبغي التدبر في أمر آخر أيضا، وهو أن العبودية كانت سائدة قبل بعثة النبي ﷺ ولم يكن أي بلد خلوًا منها. لا أعرف إذا كان الرق سائدًا في الهند آنذاك أم لا، إلا أن طائفة المنبوذين كانوا كالعبيد، إذ كانوا محرومين من المِهَن المحترمة بل كانت وظيفتهم خدمة طائفة البراهمة، والفرق بينهم وبين العبيد الآخرين هو أن العبيد يُعطون الطعام واللباس من أسيادهم أما الذين روّجوا هذا النوع من العبودية هاهنا فقد امتنعوا عن إعطائهم الطعام واللباس وجعلوا من واجبات خدمهم أن يكسبوا المال لأنفسهم وللبراهمة أيضا.

كان الرق سائدًا في الفرس والروم أيضا، فما هو الطريق الذي تبناه هذان الشعبان لمنع الرق؟ لا شيء. كان دين محمد ﷺ هو الذي سنّ قانونًا أن من استعبد حرًّا كأنما قتل بريئًا. ثم قال بأن اتخاذ الأسرى لا يجوز إلا في الحرب التي يشنها العدو حصرًا من أجل رد المسلمين عن دينهم بحد السيف، في حين أن جميع البلاد قبل هذا التعليم كانوا يتخذون الأسرى في أي حرب عبيدًا لهم. ثم اشترط شرطًا آخر وهو أن تعاملوا أسرى الحرب هؤلاء كما تعاملون أهلكم، وأن تطعموهم مما تأكلون

وتسقوهم مما تشربون وتلبسوهم مما تلبسون. ثم هناك شرط آخر وهو أنه يحق لكل أسير أو رقيق أن يفك أسره متى شاء، ولما كان قد اشترك في حرب ظالمة لذلك عليه أن يؤدي نفقات الحرب بحسب قدرته أو يؤديها أهله. ثم وضع شرطًا آخر وهو أنه لو لم يستطع أفراد عائلة المملوك ولا أهل بلده دفع النفقة لفك أسره وكان لا يملك مالا فيحق له أن يقول بأنه يريد أن يتحرر، وهنا يضطر سيده إلى إخباره بالمبلغ الذي ينبغي عليه دفعه من نفقات الحرب ويفك أسره نوعًا ما حتى يكسب ذلك المبلغ ويؤديه بالتقسيط ويحرّر نفسه، ويتحرر بعد الوفاء. ثم أمر الإسلام أن من ضرب عبده فكفَّارته أن يعتقه. ثم فرض الإسلام تحرير رقبة كفارة بعض الذنوب وذلك حتى يتحرر بهذه الطريقة من لم يتحرر بالطرق السابقة. و لم يقتصر الأمر على هذا بل فرض الإسلام للعبيد حقًّا في أموال الحكومة، فينبغي على الحكومة أن تخصص مبلغًا معينًا من أجل تحرير العبيد. فكّروا الآن أن الرق كان موجودًا في كل بلد تقريبا قبل بعثة النبي ﷺ، فلم يبدأه النبي ﷺ، أما الذي فعله تجاهه هو أنه ضيّق نطاقه، ثم هيأ الإسلام تلك الأسباب التي تكفل حرية العبيد. ومع كل ذلك إذا بقي بعض العبيد في بداية الإسلام فكان أسيادهم وفق أوامر الإسلام مضطرين إلى معاملتهم كما يعاملون أنفسهم أو أقاربهم، وكان العبيد الفقراء يعلمون أنه إذا كانت نفقاتهم الشهرية هي مائة أو مائتان أو ألف أو ألفان وهم عبيد فلا يستطيعون كسب أكثر من سبع أو ثماني دنانير بعد تحررهم وسيضطرون

إلى أن يعولوا عائلتهم كلها بهذا المبلغ الزهيد. فكان الكثيرون يتمتعون برغد العيش في الرق، ولم يريدوا تغيير حالتهم هذه منتفعين بالأحكام الإسلامية. فلم يأت النبي ﷺ لترويج العبودية بل جاء للقضاء عليها، ولم يسهم أحد أكثر من مساهمته ﷺ في محو العبودية بل لم يقم أحد بجزء واحد من ألف جزء مما قام به النبي ﷺ.

منن الرسول ﷺ وأياديه البيضاء

والآن أتناول أيادي النبي ﷺ، ولكن قبل سردها أذكر لكم حادثًا يكون مفيدًا لفهم أياديه ﷺ وتضحياته. هذا الحدث وقع في مكة إذ جاء النبي ﷺ عُتبة الذي كان أحد كبار رؤساء مكة وقال: هل تسرّ أن ترى الدماء تهدر ويعادي الأخ أخاه؟ إذا كانت إجابتك بلا فإنني أقدم لك اقتراحًا فاقبله، وهو أنك لا بد قد جئت بما جئت به تريد منه غرضًا معينًا، فإنْ كُنْت تُرِيدُ مَالًا جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وإن كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلّكْنَاك عَلَيْنَا، وإن كنت تريد به الزواج من النساء الجميلات زوجناك بمن تريد من نسائنا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الّذِي يَأْتِيك رِئْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدّهُ عَنْ نَفْسِك، طَلَبْنَا لَك الطّبّ.

وهكذا فقد عرض عرضًا: إذا كنت تريد الشرف والسيادة سوّدناك، وإذا كنت تريد الملك ملّكناك وإن كنت تبغي نساء جميلات زوجناك

بمن تريد من النساء وإن كنت مريضًا عالجناك، مقابل مطلب واحد وهو أن لا تقول بأن الله واحد.

قال النبي ﷺ بأنني لا أولي هذه الأمور أدنى اهتمام. فاسمع جوابي الآن، وبعد هذا تلا النبي ﷺ بعض الآيات القرآنية المحتوية على تعليم وحدانية الله تعالى فتأثَّر بها عتبة إلى درجة أنْ قال عند عودته لرؤساء مكة: والله إنه ليس بكاذب ولا بساحر، فاتركوا معاداته.

أنواع الإحسانات والمنن

أتناول الآن الإحسانات. اعلموا أن الإحسان أنواع، منها الإحسان المؤقت، ومنها الإحسان ذو النفع الطويل المدى. ثم هناك فرعان اثنان لهما أيضا:

- الإحسان الطبعي؛ أي الذي يوافق الفطرة الإنسانية، كما يكتنف قلب الأم دافعًا لرعاية الطفل والاعتناء به.
- الإحسان العقلي؛ أي الذي يوافق مقتضى العقل، مثلا إذا رأى الإنسان مظلومًا لانَ له قلبُه فرحمه وأحسن إليه، أو إذا رأى جاهلا ترحّم عليه فعلّمه.

والإحسان العقلي ينقسم إلى قسمين اثنين:

- إحسان يتوقع مقابله، مثلا إذا علّم الإنسانُ أحدًا فإنه يتوقع منه أن ينشر أفكاره في محيطه.

• والإحسان الطبعي أو العقلاني أي أن الرغبة في الإحسان تنشأ نتيجة الدليل والمعقول إلا أنها تنمو حتى تصبح كالرغبة الطبعية بحيث يلتاع قلب الإنسان من أجل الإحسان.

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين آخرين:

أحدهما: الإحسان الذي يقوم به المرء دون تعريض نفسه للخطر. كأن يملك أحد أموالا فيعطي غيره شيئًا منها.

ثانيهما: أن يحسن الإنسان بتعريض نفسه للخطر. مثلا، إذا نشب الحريق في بيتٍ فاقتحمه أحد لإنقاذ أهل البيت وأموالهم.

هذه هي أنواع الإحسان. فلو راعيتم هذه الأنواع ثم تدبرتم أحوال النبي ﷺ للاحظتم أنه لم يحسن فقط بل قام بأعلى درجات الإحسان. لم تكن إحساناته مؤقتة بل معظمها دائمة، ولم تقصر على أقاربه بل شملت أصدقاءه مرورًا بالمعارف ووصولا إلى الذين لم يعرفهم أيضا.

ويظهر من مطالعة إحساناته أنه لم يكن يتوقع أن ينتفع من ورائها بل كانت إحساناته طبعية كما تحسن الأم إلى ولدها. لم يحسن النبي ﷺ بدافع الحماس المفرط إحسانًا عامًّا فقط بل أحسن إلى الناس بتعريض نفسه للخطر. لقد صدرت من النبي ﷺ أعلى أنواع الإحسان وبشكل منقطع النظير. والآن أذكر لكم بعض الأمثلة على إحسانه لمعرفة عظمة تلك الإحسانات التي قام بها النبي ﷺ.

إزالة الشرك

إحسانه الأول هو إزالة الشرك. لقد أقام النبي ﷺ في العالم عبادة الله الواحد. والآن يسلّم العالم كله بأن الشرك شيء سيئ وقبيح ولكن الأمر لم يكن كذلك لما بُعث النبي ﷺ. لقد أقام النبي ﷺ هذه العقيدة الحقَّة على الرغم من تعرضه لعداء البلد كله وتحمّلِه أشد أنواع العذاب، وهكذا قد أحسن إلى معاصريه وإلى الذين يأتون بعده أيضا.

ليس لهذا الإحسان طابع ديني فحسب، بل له جانب دنيوي أيضا إذ يسهم هذا الإحسان في الرقي الدنيوي أيضا، على سبيل المثال نرى أنه لو اتخذ الناس إلها من تلك الأشياء التي خلقها الله تعالى لنفع الناس لما وسعهم التدبر في منافعها الطبيعية ومحاولة استخدامها. ولكنهم عندما يؤمنون بإله واحد وبأن كل مخلوقٍ سُخّر لمنفعة الإنسان فسيسعون للانتفاع منها وتسخيرها لهم، مما ينتج عنه ازدهار العلوم. فبإزالة الشرك وتعليم التوحيد قد أسدى النبي ﷺ إحسانًا عظيمًا من الناحية الدينية كما فتح طريقًا لازدهار العلم أيضا.

صَالَحَ ﷺ بين الدين والعلم

والإحسان الثاني الذي أسداه النبي ﷺ هو أنه أزال الخصام الحاصل بين الدين والعلم. كان الناس قبله يظنون أن من يتعلم علومًا يفقد الدين. والنبي الكريم ﷺ هو أول من غرس فكرة أن الدين هو كلام الله

والعالَـــم هو فعل الله تعالى. إن النار التي تحرق خلَقَها الله تعالى كما أنزل كلامه. فلو فكرنا في خواصِّها الحرارية فإنه تفكير في فعل الله تعالى ولن يكون مناقضًا للدين. على أية حال، لقد صالح النبي ﷺ بين الدين والعلم وقال: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[٢٧]، أي أن العلم لا يتعارض مع الدين، وعلى كل مؤمن ومؤمنة بي أن يطلبوا العلم. يقول أهل الأديان الأخرى اليوم بأن المسلمين جهلة، هذا صحيح إلا أنه يدل على تقصيرنا ولا يدل بحال على تقصير رسولنا ﷺ. لا شك أننا نخجل عند سماع هذا الاعتراض فنطرق رؤوسنا ونخفض أبصارنا، ولكنه لا يلقي أي لوم على نبينا ﷺ لأنه أصدر قراره التالي: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، حين كان أهل مكة يعدّون التعلم من الأعمال المذلة، ولم يكن بمكة كلها سوى سبعة أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، ولم يُسمح لهم بالتعلم إلا لأغراض سياسية.

فلو كان المسلمون اليوم جهلة فهو يدل على تقصيرنا ولا ذنب لسيدنا محمد ﷺ في ذلك من شيء لأنه قال لنا بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم. ونتيجة لذلك حافظ المسلمون على العلوم القديمة ووضعوا أسسا لعلوم جديدة يستفيد منها العالم اليوم. فلو لم يحافظ المسلمون على العلوم القديمة لما علم الناس اليوم شيئا عن فلسفة أرسطو ولا طبِّ أبقراط، وذلك لأن المسلمين طلبوا ترجمة كتبهما، ووضعوا

---

[27] ابن ماجه، باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم.

محاضراتهما في مقررات جامعاتهم في زمنٍ تغافل عن هؤلاء الحكماء أهلُ بلادهم أيضا. وهكذا حافظ المسلمون على كتبهم وبالتالي وصلت هذه العلوم والعلوم الجديدة التي اخترعها المسلمون إلى إسبانيا. وحين كان العلماء المسيحيون يحسبون تحصيل هذه العلوم كفرًا- كما يعد البعض دراسة العلوم الجديدة كفرًا اليوم- درس شباب أوروبا هذه العلوم على يد علماء المسلمين ثم بعد التفوق فيها وضعوا أساسًا للعلوم الجديدة اليوم. فلقد كتب أحد الكتاب الأوروبيين:

إلى متى سيظل أهل أوروبا يذرّون الرماد في أعين العالم كله ويرددون أن المسلمين لم يخدموا العلوم شيئًا، في حين أن الحق أنه لو لم تصل العلوم إلى إسبانيا عن طريق المسلمين لكنا نعيش حالة الجهل المظلم البدائي إلى الآن.

باختصار، إن استمرار رقي العلوم في العالم كان نتيجة التعاليمُ السابقة للنبي الكريم ﷺ وكان ذلك مستحيلا بدونه.

لا نهاية للعلم

الإحسان الثالث الذي أسداه النبي ﷺ هو أنه أكد على أنه ليست للعلم نهاية أبدًا. إذا قال الناس بعد إحرازهم رقيًّا إلى حد ما بأنه لا يمكن الآن تحقيق رقيٍّ أكثر من ذلك فإنه يؤدي إلى فقدان العلم، وهو السبب في تدني مستويات العلوم والأقوام أيضا بحيث يظن الناس بعد بلوغهم

حدًّا معينًا أنه لا يمكن إحداث رقي فوق ذلك. ولكن الرسول الكريم ﷺ هو أول من شخّص هذا المرض الخطير وأنقذ العالم من خلال التحذير منه، وأعطى تعليمًا مؤكّدًا أنه لا نهاية للعلم مهما كان نوعه، لذلك ينبغي مواصلة البحث والتحقيق في مجال العلم، وحذارِ أن تتوقفوا عند مكانةٍ ما. ما أعظم هذه النقطة! إننا نؤمن إيمانًا جازمًا أن النبي ﷺ كان أكبر من العلماء جميعًا، ولمْ ولنْ يكون عالمٌ أكبر منه، إلا أنه مع كل ذلك كان يقوم بالدعاء التالي: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[28]، وهذا يعني أن محمّدًا ﷺ نفسه لم يبلغ قمة العلم بل ظلّ يتقدم في السبل غير المحدودة التي خلقها الله تعالى، وظلت رغبة الازدياد في العلم تملأ قلبه. فما دام النبي الكريم ﷺ- الذي جاء لإكمال العلوم الروحانية- ظل يدعو أن يزداد علمه، فأيّ علم يمكن أن تكون له نهاية؟ وأي شخص يمكنه أن يحوز العلم كلّه؟ فما دامت لا نهاية للعلم، اتضح أن واجب أهل العلم أن يسعوا جاهدين لإحراز الرقي الدائم في مجالات علمهم، وألا يظنوا بعد بلوغهم فيها درجةً ما أنه لا يمكن الآن إحراز مزيد من التقدم في هذا المجال، بل الحق أنه سيتحقق لهم على الدوام رقيّ متواصل وتتجدد العلوم وتكثر الاختراعات.

---

28 طه: ١١٥

لكل داء دواء

لقد أحسن إلينا النبي الكريم ﷺ بإعلامنا أنه لا نهاية للعلوم، كذلك أحسن إلينا بإخبارنا أن الله تعالى جعل لكل حاجة بشرية ما يحققها، وما من حاجة بشرية في العالم إلا وخلق الله تعالى أسبابًا لتحقيقها، وذلك لقوله ﷺ: لكل داء دواء[٢٩]. لقد علّم النبي ﷺ هذا التعليم في زمن كان يقال فيه عن آلاف الأمراض أنها لا علاج لها. ولا يزال الحال نفسه اليوم أيضا بعد تقدم الطب وتحقيقه رقيًا ملحوظًا إذ يقول الأطباء أن هناك أمراضًا لا دواء لها. ولكن النبي ﷺ- الذي ولد في بلد لم يكن به طبيبٌ- يقول: لكل داء دواء، ومن بحث عن هذا الدواء وجَدَه. وبسبب قوله هذا توجه المسلمون إلى البحث في علم الطب واكتشفوا علاجًا لعشرات الأمراض المستعصية، وإن أطباء أوروبا اليوم يثبتون صدق هذا التعليم الذي جاء به النبي ﷺ إذ أنهم يبحثون عن علاج لبعض الأمراض العضال وقد نجحوا في البحث عن دواء لكثير من الأمراض. لا يتعلق هذا التعليم بالأمراض فقط بل يتعلق بالحاجات الأخرى أيضا، ومن يعمل بهذا الأصل فستكلل جهوده بالنجاح دومًا.

---

[29] مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء.

سر الرقي الأخلاقي

الإحسان الخامس للنبي ﷺ هو تعليمه الذي وضعه للرقي الأخلاقي والذي يكفل القضاء على السيئات، وهو أنه على الإنسان ألا يظن في حين من الأحيان أنه لا يستطيع أن يكون صالحًا مهما تردت حالته الأخلاقية وتدنست. ولقد قطع النبي ﷺ بهذا التعليم دابرَ اليأس والقنوط، وقال بعد العلم من الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[30].

لاحظوا الآن كيف فُتح بحسب هذا الأصل باب الأمل على مصراعيه. تنتشر السيئة وتستفحل بسبب ظن المتورط أنه ارتكب معاصي وسيئات كثيرة فلا يسعه أن يكون صالحًا. وبعد تبنيه هذا الرأي يزداد ارتكابًا للسيئات. ولكن لو ظنّ أحد بأنه يمكن أن يعود صالحًا مهما ارتكب من معاصٍ وسيئات، ولم يوصد باب الرجوع والتوبة في وجهه، فيُحتمل في كل آن أن يرجع ويصبح صالحًا.

من يجتهد بإخلاص القلب ينجح

وهذا الإحسان أيضا يندرج تحت الأصل السابق وهو أن النبي ﷺ علمنا تعليما مفاده أنه لا يضيع السعي والجهد المبذول بنية صالحة. فكان يقول بحسب الأمر الإلهي التالي: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

[30] يوسف: ٨٨

سُبُلَنَا﴾[31] أي من يجتهد من أجل الوصول إلينا فسنريه طرق الهداية إلينا. أي من يسعَ بإخلاص القلب للوصول إلى الله يصلْ إليه، ولا بد أنه يلقى هداية من الله تعالى بأي طريق كانت. ومن الخطأ القول بأن الله تعالى لا يستجيب دعاء أي سيخي أو هندوسي أو مسيحي، بل يستجاب لكلٍّ دعاؤه بطلب الهداية. ومن يسعَ بإخلاص القلب فسيهتدي إلى الصراط المستقيم. وعندما يبلغ دعاؤه وطلبه ذروته فسيهيئ الله تعالى له أسبابًا تسهّل له السلوك في سبل تؤدي به إلى الوصول إلى الله ولقائه.

المساواة

الإحسان السادس للنبي ﷺ هو أنه قضى على جميع أنواع الفخر القومي وأقام المساواة بين البشر. لقد كان كل قوم قبله يحسب نفسه أعلى من الآخرين. لقد كان العرب يزدرون الآخرين بوصفهم إياهم بالأعاجم الجهلة الذين لا يساوون شيئًا مقابلهم. أما الأعاجم فكانوا يقولون عن العرب أنهم همجيون. وكان الروم يدّعون أنهم أفضل الشعوب. أما النبي الكريم ﷺ فقد قال: لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ... إِلَّا بِالتَّقْوَى[32]. أي يا أيها العرب، ليس لكم الفضل على غيركم، لأنكم مثلهم. ولكن هناك طريقة وحيدة للفضل وهي أن

---

[31] العنكبوت: ٧٠

[32] مسند أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار رضي الله عنهم.

تسبقوا الآخرين في التقوى فتحرزوا الفضل ولا يكون بسبب عِرقكم وقومكم بل بالتقوى فقط.

لو كان النبي الكريم ﷺ علّم هذا التعليم قوما آخرين وقال لهم بأنه ليس لكم فضل على غيركم لقيل بأنه يرفع معنويات قومه، مثلا لو وقف أحد من بين الفئات المنبوذة في الهندوسية وقال يا أيها البانديتات والبراهمة، لا فضل لكم على الفئات الأخرى، لكان لأحد أن يقول بأن هذا التعليم ليس لإقامة المساواة بل لرفع مكانة هذه الفئة المنبوذة. ولكن لو وقف أحد السادات[٣٣] في وسطهم وقال لهم: لا فضل لكم على الناس الآخرين، لقيل إنه يعلم قومه تعليمًا صادقًا وبذلك يحسن إليهم. وانظروا الآن إلى ما أمر به النبي ﷺ؛ فقد نصح بكلمات قد تحط من درجةِ قومه، ولا ترفعها على حساب الأقوام الأخرى. فثبت أن تعليمه هو تعليم المساواة الحقيقية. لم يقل النبي ﷺ: يا أيها الأعاجم، لستم أفضل من الروم والعرب، بل يقول لقومه ألا يزعموا الأفضلية على أقوام آخرين. لأجل ذلك كان تعليمه نموذجًا أعلى لتعليم المساواة وكان إحسانًا عظيمًا.

فلقد أخبر النبي ﷺ بأمر من الله بالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ

[33] أي من ينحدر من عائلة النبي ﷺ. (المترجم)

أَتْقَاكُمْ﴾[٣٤] أي قل لهم يا أيها الرسول ﷺ بأن الشعوب والقبائل خلقت ليتسابق الناس في الأعمال الصالحة كما يتنافس فريقان في اللعب. لقد اعتبر النبي ﷺ الناس سواسية ليس على المستوى القومي فحسب بل على المستوى التمدني والحضاري أيضا. فقال: يمكنكم أن تأكلوا وتشربوا مع جميع الأقوام ما عدا التي لا تعرف الحلال من الحرام، أي من يحافظون على النظافة وعندهم مستوى ما للتمييز بين الحلال والحرام فلا يمنع الأكل والشرب معهم.

المساواة في العدل والإنصاف

كذلك أقام ﷺ المساواة في العدل والإنصاف. أي سيراعى العدل والإنصاف مع الجميع حتى ولو كانت بينكم وبين غيركم خصومة وعداء. على سبيل المثال إذا تخاصم المسلم مع اليهودي فلا فضل للمسلم في هذه الخصومة على اليهودي. ولن يُفضّل فردٌ من قومنا على أفراد من الأقوام الأخرى؛ ولم يُبِح النبي للمسلم ما يباح لليهودي من ظلم، ذلك أن اليهودي مأمور بألا يأخذ الربا من اليهودي ولكن يمكنه أن يأخذه من غيره. إذا كان الربا ظلمًا فأخذه من المسلم قبيح مثلما هو قبيحٌ أخذُه من اليهودي.

---

[34] الحجرات: ١٤

المساواة درس منقطع النظير

كذلك قال: اُنصُرْ أخاك ظالـــمًا أو مظلومًا.[٣٥] ولقد اندهش الصحابة لدى سماعهم لهذا القول وقالوا: هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ. أي انصروا الظالم بمنعه من ظلمه.

هذا الأمر يدل على أن النبي ﷺ أقام العدل والمساواة بين الناس، وساوى بينهم في المعاملات، كما يدل على أنه لم يأمر بوقوفكم إلى جانب أخيكم في كل حالة بل أعطى تعليمًا يقول بأنه لو ظلم أخوك فلا تساعده على غيره بل مساعدته في هذه الحالة تتمثّل في كفّ يده عن الظلم، لأن الناس سواسية عند الله تعالى.

ويثبت من هذا الأمر أن حياته كانت مقدسة وطاهرة، فلو كان النبي الكريم ﷺ ظالـــمًا– والعياذ بالله– وكان يجيز ممارسة الظلم على الآخرين والإضرار بهم لما اندهش المسلمون عند قوله: انصر أخاك ظالـــمًا أو مظلومًا. لو كانوا يؤمرون بالظلم يوميًا لما كان هناك داعٍ لإبداء التعجب والحيرة، لأنهم في هذه الحالة يكونون معتادين على تحريضهم على الظلم، ولكنهم اندهشوا، مما يدل على أنهم كانوا يؤمرون يوميًا بعدم ممارسة الظلم، ولأجل ذلك عندما أُمروا بنصرة أخيهم الظالم أيضا تعجبوا من هذا التعليم المخالف لما يتلقونه يوميًا،

[35] البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه...

فطلبوا شرحه من النبي ﷺ، وكان شرحه عديمَ النظير، بحيث فتح عليهم أبوابًا جديدة للأخلاق الفاضلة.

احترام العهود

ويمكن أن يقدَّم دأب النبي ﷺ في الوفاء بالعهود والاتفاقيات كمثل على المساواة. كان النبي ﷺ خارجًا لإحدى الغزوات، ويعرف الجميع أهمية كل مقاتل في مثل تلك الغزوات. لقي النبيَّ ﷺ في الطريق شخصان، سألهما النبي ﷺ عما جاء بهما إليه فقالا: جئنا لنسلم. لقد قدِمنا من مكة وقلنا هناك قبل سفرنا: لسنا ذاهبين لمساعدة المسلمين. قال النبي ﷺ: ما دمتما قلتما هناك بأنكما لا تخرجان لمساعدة المسلمين فإنكما تخالفان وعدكما إذا انضممتما إلينا في الحرب، فلا بد أن تتقيا نقضَ العهد. ما أروع هذا الدرس للنـــزاهة وما أسماه!

هناك قول بالفارسية معناه: لا تحبّ للآخرين إلا ما تحبه لنفسك، وهو قول يردده الناس ويؤكدون عليه كثيرا دون أن يعملوا به، ولكن النبي الكريم ﷺ قد تمسك به وعمل به بما يندر نظيره في التاريخ البشري.

لاحظوا أن النبي ﷺ ذاهب لمواجهة جيش قوامه ألف مقاتل، وليس معه سوى ٣٠٠ شخص، وفي هذه الحالة يلتقي به شخصان خبيران في فن الحرب ويمكن أن يكونا مفيدين جدًّا له، ولكنه يمنعهما من المشاركة حتى لا يخلفا العهد، ويتضح من هذا الحدث مدى حرص النبي ﷺ على

الوفاء بالعهد سواء كان معه أو مع غيره، حتى إنه كان يأمر بالوفاء بالعهد مع العدو المقاتل أيضا.

لقد أقام النبي ﷺ مساواة روحانية إلى جانب المساواة الاجتماعية والشرعية. وهو أول من فتح لجميع الأقوام باب الوصول إلى المملكة الروحانية وأعلن بينهم بأن الله تعالى بعثه للناس كافة، وإن الناس سواسية عند الله فقراء كانوا أم أغنياء، فيمكنهم الدخول في دين الله هذا ونيل الإنعامات الروحانية العليا.

أسباب إرساء الأمن والسلام

الإحسان السابع أنه ﷺ هيأ في العالم أسبابًا تكفل إرساء دعائم الأمن والسلام فيه، وأقدّم الأمور التالية دليلا على ذلك:

احترام الزعماء الدينيين لكل شعب

● إن أكبر علة لنشوب الحروب بين الناس هي تكذيب الناس لديانات الآخرين وزعم كل شعب أنه شعب الله المختار وأن الآخرين مطرودون من باب الله منذ الأزل. وإنه لزعم يخالف الفطرة. لكلٍّ حقٌّ على الله مثل غيره أيًا كان شعبه وبلده. فإن التبجّح بالزعم المذكور يثير عاطفة الازدراء عند القوم الآخرين، ويؤدي ذلك إلى نشوب الخصومات والفساد. لقد أغلق النبي ﷺ أبواب هذه الخصومات بقوله

تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[36] أي ما من قوم إلا وقد خلا فيهم الأنبياء. وبهذا أقام قدسية واحترام أنبياء جميع الأقوام، ومن راعى هذا الإعلان تلاشى من قلبه النفور الذي ينشأ عن احتكار الهداية وتحديدها في حدود معينة، لأنه يعلم أن أصل كل دين صحيح، فيتحد مع أتباع الأديان الأخرى على الرغم من اختلافه معهم، لأنه يعلم أن الله تعالى أقام جميع الأديان، فإن بغضها وإنكارها يؤدي إلى إنكار فضل الله تعالى.

لاحظوا الآن، ما أروع هذا الطريق الذي دلنا عليه النبي ﷺ لإقامة الأمن والسلام. فإذا سألنا هندوسي: ما رأيكم في "رام تشندر جي" لقلنا له بأننا نعدّه من الصلحاء الذين اختارهم الله تعالى. فكيف يسع أي هندوسي أن يغضب علينا بعد سماعه منا هذا القول؟ وبسبب هذه الفكرة لن نبحث عن الأخطاء في زعماء وصلحاء أقوام آخرين بل إذا أخبرنا أحد أنه كان في منطقة ما في أميركا أو أفريقيا صالحٌ أو مبعوثٌ من الله قلنا له: هذا صحيح لأن القرآن الكريم أخبرنا سلفا: ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[37]. وبهذا التعليم قد فتح النبي ﷺ بابًا لإقامة الأمن والسلام.

---

36 فاطر: ٢٥

37 الرعد: ٨

لا تسيئوا إلى ما يحترمه الناس

• السبب الثاني المفضي إلى إثارة الخصومات بين الناس هو أن الناس يسيئون إلى شعائر الآخرين وإن لم يسيئوا إلى صلحائهم. ولقد منع الله تعالى من هذا الفعل أيضا بواسطة الرسول الكريم ﷺ فأعلن: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٨].

أي لا تسبوا الأشياء التي ينظر إليها أتباع الأديان الأخرى بنظرة العزة والتوقير كالأصنام وغيرها. لا يحق لكم أن تذكروها بكلمات قاسية وإن كانت خاطئة في نظركم، وذلك لأنه يسبب إيلامًا لقلوبهم مما يؤدي إلى إثارة الشجارات ونشر الفساد لأنهم أيضا سيسيئون إلى مبادئكم ومعتقداتكم بغير علم ويسبّون الله عدوًا.

ما أروع هذا التعليم الذي أتى به النبي ﷺ وما أسماه! إذ قال بأن مؤسسي الأديان الأخرى كانوا صادقين وصلحاء فلا بد أن تؤمنوا بهم، وأوصى في الأمور الخاطئة السائدة في أقوامهم بألا نسيء إليها.

مزية لكل دين

• والأمر الثالث المثير للفساد والحروب هو أن أتباع كل دين يقولون عن الأديان الأخرى أنها كاذبة مطلقًا، أما دينهم هم فلا خطأ

---

[38] الأنعام: ١٠٩

ولا فساد فيه. ولقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣٩].

أي: ما هذا الظلم الذي يحدث هنا إذ يقول اليهود لا يتحلى النصارى بأية مزية، ويقول النصارى يفتقر اليهود إلى أدنى ميزة تذكر، في حين أنهم يقرأون الكتاب نفسه، ومن يقرأ كتابًا إلهيًا فلا بد أن يعرف أنّ في كل شيء مزية مهما كان سيئًا في الظاهر، وإذا خلا أي شيء عن نفع يذكر لقُضيَ عليه. فكيف يمكن أن يقول هؤلاء أنه لا مزيةً تذكر في غيرهم؟!

وعليه؛ فينبغي على المسلم الذي يقول أن الديانة الهندوسية مليئة بالعيوب، والهندوسي الذي يقول بأن ديانة المسلمين كلها عيوب، والمسيحي الذي يقول عن الهندوس بأن دينهم يعجّ بالعيوب والنقائص ولا مزية فيه، أن يفكر في هذه النقطة؛ وهي كيف يمكن أن تقوم المسيحية في العالم دون أن تكون فيها مزية تذكر؟ وكيف يمكن أن تقوم اليهودية في العالم من دون أن تتحلى بخصلة ما؟ وكيف للديانة الهندوسية أن تقوم في العالم بغير أية مزية فيها؟ وكيف يمكن أن يقوم الإسلام في العالم دون أن تكون فيه أية فضيلة؟! لا يمكن أن تقوم أية ديانة في العالم ما لم تتحلَّ

---

39 البقرة: ١١٤

بمزايا كثيرة. ولكن لم يُعطِ سوى الإسلام مثل هذا التعليم بالاعتراف بمزايا الآخرين. ومن الجبن ألا يعترف الإنسان بمزايا الآخرين.

المؤمنون بنية صالحة

لقد تبنى النبي الكريم ﷺ ذريعة أخرى لإقامة الأمن وهي أنه قدم أمام العالم الحقيقة التي مفادها: قد بُعثَ الأنبياءُ في كل قوم، وتتحلى كل ديانة بمزايا شتى. وإضافة إلى ذلك نبّه إلى حقيقة أخرى وهي أن عددًا كبيرًا من أتباع كل دين يؤمنون به، ليس تعنتًا ولا شرًّا منهم وإنما باعتبارهم إياه دينًا صادقًا. فلا يمكن التغاضي عن شوق هؤلاء المؤمنين للحسنة والأعمال الصالحة. وإن سعيهم هذا مشكور، وإن كانوا على خطأ.

ونجد مثالا عليه من سيرة النبي ﷺ. يعلم الجميع أن الإسلام يعارض الشرك أيما معارضة، ولكن جاء بعض المسيحيين مرة إلى النبي ﷺ وأخذوا يناقشونه في المسجد إلى أن حان وقت عبادتهم، فهبوا للخروج من المسجد من أجل العبادة، ولكن النبي ﷺ قال لهم: يمكنكم أن تصلوا هنا داخل المسجد، فأدّوا شعائرهم وقاموا بالعبادة بينما كان النبي ﷺ ينظر إليهم.

لاحظوا الآن، لعلهم عبدوا الصليب أو أوثان آبائهم، إلا أن النبي ﷺ سمح لهم بذلك في المسجد[40] لأنه كان يعرف أنهم يفعلون ذلك من أجل

---

[40] السيرة الحلبية، ج٣ ص٢٣٩ طبعة مصر ١٩٣٥.

التقرب إلى الله بإخلاص القلب. فقد احترم النبي ﷺ عاطفتهم هذه وراعى نيتهم وسمح لهم بعبادتهم في المسجد الذي ما أقيم إلا لعبادة الله.

حدود الحرب

أحد بواعث امتداد الفساد أنه لو حدث فساد لسبب ما فإن بعض الناس لا يريدون إنهاء ذلك السبب بل يحافظون عليه. لقد أزال النبي ﷺ أسباب امتداد الفساد وحد للحرب تخوما لا تتعداها.

فقد تلقى النبي ﷺ من الله تعالى الأمر التالي القائل: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[41]، أي إذا كانت الحرب على أشدها وتخلى العدو عن الحرب فلا يجوز محاربته، لأن فعله هذا يدل على ندمه، والله تعالى لا يضيع ندم النادمين بل يغفر ويرحم. كذلك قال: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[42] أي لا يعاقَب إلا الظالمون، أما الذين يكفون عن شرورهم فلا يجوز تدميرهم بسبب جرائمهم السابقة.

حرية الفكر

الإحسان الثامن للرسول الكريم ﷺ هو أنه أقام أصل حرية الفكر. أصل الرقي العلمي هو حرية الفكر. ومفتاح جميع أنواع الرقي هو أنه إذا نشأ شك في شيء لزم التحقيق فيه، ثم ينبغي تغيير الفكر والعمل

---

[41] البقرة: ١٩٣

[42] البقرة: ١٩٤

وفق النتيجة الصحيحة. لم يكن العرب خصوصًا وأهل البلاد الأخرى عمومًا يعرفون قيمة حرية الفكر عندما ولد النبي الكريم ﷺ، وفي ذلك العصر أعلن القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[43] أي ينبغي ألا يكون هناك إكراه في مجال الدين لأن الله تعالى قد أظهر الفرق بين الهداية والضلال بكل جلاء، فمن أراد أن يفهم فليفهم بالبرهان وينبغي ألا يمارس الجبر عليه.

أبدى العرب مرة رغبتهم في التصالح مع النبي ﷺ بحيث قالوا: نحن سنعبد الله أحيانًا مقابل أن تعبد أصنامنا. فقال لهم النبي ﷺ وفق أمر الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[44]، أي إذا كنت أعتبر الأوثان كاذبة فكيف أضحي بضميري وفكري وأخضع لعبادتها؟ وما دمتم لا تؤمنون بالله الواحد فكيف يسعكم أن تعبدوه حقيقة؟ فلكم دينكم ولنا ديننا.

حقوق المرأة

الإحسان التاسع الذي أسداه النبي ﷺ يتعلق بالمرأة. لم تكن للمرأة أية حقوق قبل بعثة النبي ﷺ. وكان العرب يتقاسمونها في مال الإرث. لقد أقام النبي ﷺ حقوقها بأمر من الله تعالى وأعلن: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾[45] أي أن حقوق النساء مثل حقوق الرجال. ثم أعلن بأنه كما

---

[43] البقرة: ٢٥٧

[44] الكافرون: ٧

[45] البقرة: ٢٢٩

قدّرت إنعامات وجوائز للرجال بعد موهم كذلك للنساء أيضا، ثم عين لهن أنصبة في الإرث، وأعطاها حق تملك العقارات أيضا. لم تكن المرأة تحظى بحق تملك العقارات في إنجلترا قبل عشرين سنة من الآن[46]، فلم تكن تستطيع أن تملك ما كانت ترثه من والدها أيضا. ولكن النبي ﷺ أعلن قبل ١٣٠٠ عامٍ من الآن بأن المرأة مالكة لأموالها وعقاراتها بحيث لا يستطيع زوجها أيضا أن يأخذ من أموالها شيئًا دون إذنها، كما أعطاها كثيرا من الحقوق الهامة مثل حضانة الأولاد ورضاها في النكاح وغيرها.

سد باب الخرافات

الإحسان العاشر الذي أسداه النبي ﷺ هو سدّه لباب الأمور الوهمية السائدة آنذاك. كانت الشعوذة وأعمال السحر سائدة في المجتمعات قبل بعثته ﷺ. وكان الناس يتفاءلون بأصوات الحيوانات، كما كانوا واقعين في شتى أنواع الأوهام، باختصار، كان أهل البلاد المتحضرة معرّضين لصنوف من الأوهام، في هذا الوقت نفسه ولد النبي ﷺ في بلد يسوده الجهل، فأزال جميع هذه الأوهام وأعلن أنّ هذه الأمور لا طائل منها وهي من اللغو الباطل، بل الله تعالى خلق علومًا في كل الأمور والمجالات وينبغي الاستفادة من هذه العلوم التي تزيل الأمراض وتحقق الرقي والازدهار. كان الناس يقولون إن الأمطار تنـــزل بسبب

---

46 أي وقت إلقاء هذا الخطاب في عام ١٩٢٨م – (المترجم)

تأثيرات النجوم، فقال النبي ﷺ لا شك أن للنجوم تأثيرات ولكن لا يصح أن يكون لها كيان مستقل، إنها ذريعة من ذرائع كثيرة خلقها الله تعالى، ومن اللغو والعبث ربط الأعمال والأمور بسيرها.

كذلك كره النبي ﷺ أخذ الفأل من القطة والغراب والبومة وغيرها من الحيوانات. إضافة إلى ذلك أقرّ بصحة قوانين الله تعالى وقال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾[47]، أي لقد أجرى الله تعالى قانونًا لكل شيء فاتبعوا تلك القوانين وحقّقوا الرقي والازدهار، ولن تحرزوا رقيًّا إذا خالفتموها. كان النبي ﷺ ذاهبًا إلى مكان ما إذ رأى الناس يؤبّرون النخل، فقال ﷺ: ما هذا؟ وما الحاجة إلى ذلك؟ ماذا لو تركتموه؟ ظن الناس بأن النبي ﷺ منعهم من ذلك فتركوه، ولم يُلقّح النخل في تلك السنة، فلم ينتج فقالوا له: منعتنا من التأبير فامتنعنا فلم تُلقّح النخل، فقال ﷺ: سألتكم، ولم أمنعكم، فلماذا تركتموه، بل عليكم بما كنتم تصنعون، أنتم أعلم بأمور دنياكم.[48]

كذلك كسفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته[49] بل إنهما يتعلقان بقوانين الله تعالى.

---

47 الفتح: ٢٤

48 مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا...

49 البخاري، أبواب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس.

انسجام بين ثراء الأثرياء وأجرة الأجير

الإحسان الحادي عشر الذي أسداه النبي ﷺ هو إقامته العلاقات بين صاحب المال وبين الأجير على أصول أدت إلى فتح باب الرقي، وباتباع هذا النظام تنتهي جميع الخصومات بين صاحب المال والأجير. إن التعليم الذي تلقَّاه النبي ﷺ من الله تعالى جاء فيه أن كل غني إنما يكسب الأموال بواسطة فقير لذلك ينبغي عليه أن يفصل من أمواله نصيبا ٤٠/١ للفقراء لينفق عليهم، ولا يعطى حق إنفاق هذه الأموال إلا للحكومة. والحقيقة أن صاحب المال لا يكسب الثروة من خلال أُجَرائه فقط بل يؤثر في ثرواته جهدُ أُجَراء البلد كله. وعلى الحكومة أن تأخذ من الأثرياء ٤٠/١ من أموالهم ثم تنفقها على الفقراء بحيث تخصص بعض هذه الأموال للمعاقين وبعضها لمن لا يكفيهم ما يكسبون، وبعضها للفقراء الذين يقدرون على إحراز التقدم في أعمالهم فتعينهم الحكومة ليغيروا حالتهم. وهكذا فتح النبي ﷺ طريق رقي الفقراء ووضع حدًّا لازدياد ثراء الأثرياء.

حرمة الخمر

الإحسان الثاني عشر الذي أسداه النبي ﷺ إلى العالم هو أنه حرّم الخمر تحريما كاملاً. لا حاجة بي إلى التكلم عن مساوئ الخمر لأن العالم كله أصبح يتكلم الآن عن عيوبها، وهناك جهود حثيثة تبذل في بعض

البلاد للتقليل منها أو لمنعها، فلقد منعها الأميركان بسن القانون، ويؤكد أهل بلدنا أيضا على منعها، مع أن الحكومة لم تسلّم بطلبهم ولكن إذا واصل المسلمون والهندوس والمسيحيون جهودهم فلا بد أن تقبل الحكومة طلبهم.

تضحيات النبي ﷺ

والآن أتناول ذكر بعض تضحيات النبي ﷺ، ولكن قبل ذلك أرى ضروريًا التفصيل في حقيقة التضحية حتى تفهموا عظمة تضحيات النبي ﷺ.

ينبغي أن تتذكروا أنه ليست التضحية أن يُنـــزع مِن الإنسان شيء قسرًا بل التضحية الحقيقية هي تلك التي تُقدّم لنفع الناس بمبادرة طوعية في ظروف يمكن تجنبها. إن ألوفًا من الناس يموتون يوميًّا ولكن لا أحد يقول بأنهم يضحون بأنفسهم، والسبب في ذلك أن الموت ليس بيد الإنسان ولا يسعه تجنبه. وهناك ألوف من الناس يهجرون بلادهم ولكن لا أحد يقول بأنهم يضحون، والسبب في ذلك أنّ الذين يهجرون بلادهم إنما يهجرونها لمنفعتهم. أما إذا نظرتم إلى تضحيات النبي ﷺ فستعلمون أنها تضحيات قدمها النبي ﷺ بطيب خاطره ومن أجل نفع الناس دون أن تكون له فيها منفعة شخصية.

العمل الدءوب

هناك أنواع كثيرة للتضحيات الحقة، منها تضحية مؤقتة ومنها تضحية دائمة. أما التضحية الدائمة فهي أعلى درجة. وإنّ تضحيات النبي ﷺ تتسم بالصبغة الدائمة بل ورد في إحدى الروايات أنه كان يقول: أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَدْوَمُهَا.[50] فإذا بدأتم بأية حسنة فاسعوا جاهدين للمداومة عليها.

أنواع أخرى للتضحيات

ينقسم النوعان المذكوران للتضحية إلى قسمين آخرين: أحدهما: التي زمامها بيد الآخرين، ثانيهما: ما يقدمه الإنسان بنفسه مبادرًا. مثال النوع الأول كأن يهدد الناس أحدًا بالقتل على أن يترك الصدق، إلا أنه لا يتركه ويضحي بنفسه، وهذا ما يسمى بالتضحية الإجبارية. والمثال على النوع الثاني هو كأن يكون لدى أحد مال فينفقه بطيب الخاطر لنفع الآخرين. وهذا ما يسمى بالتضحية الطوعية. لقد قدم النبي ﷺ التضحيات على النوعين المذكورين؛ إذ شدّد عليه الناس حتى يتخلى عن الصدق إلا أنه لم يفعل ذلك، كما أنه قدّم كثيرا من تضحيات لم يكن مضطرًا إلى تقديمها.

كما وتنقسم التضحيات بحسب طواعيتها أو كراهتها إلى:

---

[50] مسند أحمد، باقي مسند الأنصار رضي الله عنهم.

- التضحية الاستكراهية: وهي التي يقدمها الإنسان مستكرهًا بسبب الظروف والأحداث وقلبه يكره ذلك.
- التضحية الرضائية: أي تلك التي وإن كان الإنسان يقدمها مضطرًا لداع طارئ ولكن قلبه مع ذلك يحبها.

المثال على النوع الأول هو الحرب التي لا يحبها الصالحون من الناس، إلا أنهم يقبلون هذا الشيء المكروه من أجل نفع العالم.

والمثال على النوع الآخر بذل المال والوقت لتعليم الناس، وهذه التضحية يقوم بها صاحبها بطيب الخاطر، والتضحية بالنفس في سبيل خير القوم أيضا من هذا القبيل، لأن الإنسان لا يهلك نفسَه فيها بل يموت نتيجة فعل الآخرين، إلا أنه يتمنى أن يضحي بنفسه في سبيل الله. فمع أنه يقدم هذه التضحية مكرها إلا أنها تضحية رضائية أيضا، أي يرغب الإنسان في القيام بها.

لقد كانت تضحيات النبي ﷺ من هذين النوعين كليهما، إذ قدّم التضحيات الاستكراهية، أي قام ببعض الأعمال التي كان يكرهها شخصيًا، إلا أنه ضحّى برغبته وميوله من أجل نفع العالم؛ والمثال على ذلك اشتراكه في الحروب، كما قدم تضحيات كان يحبها طبعًا كالتضحية بالأموال والراحة.

ثم إن من التضحيات ما يُقدَّم من أجل تحقيق هدف مؤقت، ومنها ما يُقدم من أجل الحفاظ على الحقائق الثابتة الدائمة.

والأسمى درجة بين التضحيات كلها ما يكون خلوًا من تحقيق المنافع الشخصية. وكانت تضحيات النبي ﷺ من هذا القبيل كما سترون لاحقا. لم يضحِّ النبي ﷺ لتحقيق هدف مؤقت بل من أجل الحقائق الثابتة الدائمة وللرقي الدائم لبني البشر. فكانت تضحياته عظيمة جدًّا مقصدًا وهدفًا وكمًّا وكيفًا، بل إنها مثيرة للحيرة، وهي أسوةٌ للأولين والآخرين. لقد قدم ﷺ بطيب الخاطر تضحيات عظيمة لنفع العالم ومن أجل إقامة الحقائق الثابتة الدائمة، وذلك ليرتقي العالم ويحقق ازدهارًا. فلقد أعلن ﷺ بحسب قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٥١].

أي سوف نُظهر للعالم كمال إيمانكم، وذلك باضطراركم إلى أن تخوضوا مواقف وظروفًا صعبة، وتعرضكم للخوف والجوع من أجل الحفاظ على الحقائق الثابتة، وتكبدكم خسارة في الأموال والأنفس والثمرات. ومن يتحملون هذه الصعوبات بطيب الخاطر ويقولون بأن هذه الأشياء كانت لله أصلا ونضحي بها في سبيل الله، فبشرهم بأن تضحياتهم هذه لن تضيع أبدًا.

---

[51] البقرة: ١٥٦-١٥٧

أجزاء التضحيات

وكما أن للتضحيات أنواعًا وأقسامًا كذلك لها أجزاء كثيرة أيضا.

مثلاً:

- تضحية بالشهوات، أي القضاء عليها.
- تضحية بالعواطف، أي القضاء عليها.
- تضحية بالمال
- التضحية بالوطن، أي الهجرة منه
- التضحية بالأصدقاء
- التضحية بالأقارب، أي تركهم لوجه الله تعالى
- التضحية بالشرف والمنصب، أي قبول الذلة والمهانة لوجه الله أو من أجل الحفاظ على الحقائق الثابتة الدائمة، أو ترك اقتناص فرص لإحراز العزة والمنصب.
- التضحية بالراحة
- التضحية بالعيش الرغد
- التضحية بالذرية والنسل
- التضحية بمشاعر الأقارب
- التضحية بالنفس

- التضحية بمشاعر الأصدقاء

والآن أثبت لكم أن النبي ﷺ قد قام بجميع أنواع هذه التضحيات.

التضحية بالشهوات

الدليل على أنه ﷺ ضحّى بالشهوات هو أنه تزوج في عز شبابه من امرأة كهلة. ويظهر من سيرة النبي ﷺ أن السبب في ذلك هو أنه كان يريد ألا تميله زوجته نحوها كل حين وآن، وبالتالي يتفرغ للجهود الهادفة إلى رقي العالم.

لم يكن النبي ﷺ قد أعلن النبوة لما قام بهذا الزواج، وبالتالي لم تكن هناك مشاعر الإخلاص والمحبة النابعة عن الأسباب الدينية. كان يظن أن رغبة المرأة الشابة تقتضي منه الالتفات إليها كل حين وآن ولأجل ذلك تزوج من امرأة بلغت الكهولة من عمرها، وكانت هذه تضحية عظيمة. كان شابًّا قويًّا في الخامسة والعشرين من عمره، وهيئته الجسدية الظاهرة قوية حتى أنه لم يكن يخالط سواد شعره إلا بعض الشعرات البِيض عندما بلغ ٦٣ من عمره، كان قويًّا بحيث ظل يؤم الصلاة بنفسه، ويقود الجيش في الغزوات. فمن كان قويًّا في شيخوخته فإن زواجه من امرأة كهلة بدلا من الشابات يدل على أنه كان يحب أن يقضي معظم أوقاته في خدمة الناس. أيمكن أن تكون تضحية بالشهوات أفضل من هذه؟

لقد تزوج النبي ﷺ في عز شبابه من امرأة كهلة حتى لا تأخذ وقته كله، ولكنه لما وصل إلى كهولة من عمره ورأى أن هناك جماعة من النساء أيضا تكونت وتكن له إخلاصًا من الناحية الدينية وجاهزة لتقديم أية تضحية دينية، فتزوج النبي ﷺ من بعض السيدات الشابات نسبيًا من أجل تعليم قومه كثيرًا من مسائل الشريعة، وبذلك تحمّل تلك الأثقال التي تكسر ظهور الشباب. لقد ضحى النبي ﷺ بشهواته في عصرين اثنين؛ عصر الشباب وعصر الكهولة. كما كان زواجه من السيدات الأخريات بعد زواجه من عائشة تضحية عظيمةً أيضا.

التضحية بالعواطف

لقد قدم النبي ﷺ التضحية بالعواطف في مناسبات شتى. ومنها على سبيل المثال تلك التضحية التي قدمها النبي ﷺ من أجل إقامة العدل. لقد ورد في كتب التاريخ أن عمّ النبي ﷺ العباس كان من بين أسرى بدر. كان العباس مسلمًا في قلبه وكان يساعد النبي ﷺ دائمًا، وأحيانًا كان يرسل إليه أخبار العدو من مكة، إلا أنه رضخ أمام ضغوط الكفار واشترك في غزوة بدر مع الكفار ووقع أسيرًا ورُبط بالحبال مع الأسرى. ولما كان عدد المسلمين قليلا و لم تكن هناك أسباب أخرى لمنع الأسرى من الهروب سوى ربطهم وثيقًا بالحبال فلم يطِقْ تلك الحالة العباس- الذي ترعرع في النعومة وكان ثريًّا أيضا- وأصبح يئن من شدة الحبال.

لقد تألم النبي ﷺ جدًّا عند سماعه صوت العباس وأخذ يتقلب في فراشه في اضطراب شديد، فلما رآه الصحابة عرفوا أن السبب هو أنين العباس فأرخوا وثاقه. فلما انقطع صوت أنين العباس بعد قليل سأل النبي ﷺ عما حدث مع العباس إذ لا يُسمع صوته الآن. قال الصحابة: يا رسول الله لقد خففنا وثاقَه نظرًا إلى اضطرابك تجاهه. فقال: أوفعلتم ذلك بكل الأسرى؟ قالوا: لا، قال إما أن ترخوا وثاق جميع الأسرى أو شدّوا وثاقه أيضا[52]. ما أروع هذه التضحية العظيمة. كان العباس عم النبي ﷺ ويحبه كثيرا، ولكنه لم يحب أن يخفف وثاقه دون الأسرى الآخرين، لأنه كان يعرف أنه مثلما كان العباس من أقاربه كذلك الأسرى الآخرون أيضا كانوا من أقارب الصحابة، ولعلهم أيضا كانوا يتألمون بذات الألم الذي يشعر به النبي ﷺ. لقد تحمّل النبي ﷺ كل ذلك لكيلا تختل ضوابط العدل، ولم يرض بإراحة العباس ما لم يتم إراحة الأسرى الآخرين.

وهناك مثال آخر لتضحيته بمشاعره وهو أنه جاء بعض المعارضين مرةً إلى عمه أبي طالب وقالوا له لقد طفح الكيل الآن، فأَفهِم ابن أخيك أن يقول كما يشاء بعبادة الإله الواحد ولكن يجب ألا يسيء إلى أوثاننا بقوله إنها لا تقدر على شيء. وإنَّا والله لا نصبر على هذا حتى تكفّه عنَّا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

---

[52] أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٣ ص ١٠٩ طبعة الرياض ١٢٨٦هـ.

كان هذا الوقت عصيبًا جدًّا على أبي طالب، فدعا النبيَّ ﷺ، وظنّ أنه سيقبل قوله نظرًا إلى ما له عليه من أيادي، فلما أتى قال له أبو طالب:

يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني وكانوا ثائرين جدًّا وهدّدوني أنهم سيؤذونني وجميع أقاربي. ألا يمكنك أن تكف عن عيب آلهتهم حتى نتجنب معارضة هؤلاء؟

لاحظوا الآن كم يتعرض المرء لجرح مشاعره ولصدمة عند ردّه لقولِ شخص ربّاه في صغره ويكون عمّه، بل عمه الذي أحسن إليه طويلا وقال له قوله هذا في وضع اضطراري عصيب.

فمن الطبيعي أن النبي ﷺ أيضا صُدم بحلول هذه المصيبة، فإما أن يصمد للدفاع عن الحق العظيم أو يضحي بحياة من أحسنوا إليه. ولهذا الوضع الصعب ترقرق الدمع في عينيه، إلا أنه قال لعمّه: إنني أستطيع أن أتحمل كل أنواع الأذى من أجلك ولكن لا يسعني ترك تبليغ وحدانية الله تعالى والتنديد بالشرك، حتى ولو تخليتَ عني وتركتني وشأني.

لو كان شخص آخر غير أبي طالب لقال: لقد أسديتُ إليه إحسانات شتى إلا أنه يضرب بها عرض الحائط ولم يقبل قولي. ولكن أبا طالب كان يعرف قلب النبي ﷺ وكان يعرف أنه يقدر الإحسانَ حق قدره، فإذا كان يردّ قولي هذا في هذا الوضع العصيب فلا بد أنه يضحّي تضحية عظيمة، ولا يفعله لنفسه بل لفلاح قومه وإخراجهم من الظلمات والضلال. فتأثر أبو طالب بتضحيته هذه وقال له بعفوية:

"اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت لأنك لا تقول إلا الحق، وإنني وجميع أقاربي معك وجاهزون لتحمل أي أذى."[٥٣]

التضحية بمشاعر الأقارب

إن التضحية بمشاعر الأقارب أصعب من التضحية بمشاعر النفس. يمكن للمرء أن يضحي بمشاعره إلا أنه يسعى دائمًا ليراعي مشاعر أقاربه ويعمل لتلبية رغباتهم. هناك كثير من الآباء يقنعون بارتداء ملابس بسيطة لنفسهم ولكنهم يُلبسون أولادهم ملابس جيدة، يأكلون طعامًا بسيطًا ولكنهم يطعمون أولادهم كل ما هو أطيب وألذّ. وإن نظرة واحدة إلى تضحيات النبي ﷺ تكشف لنا أنه لم يضَحّ بمشاعره فقط من أجل إقامة الحقائق الدائمة ومن أجل خير بني البشر بل ضحى بمشاعر أقاربه أيضا. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك أحدها أن المسلمين في إحدى المرات لاقوا فتحًا كبيرًا أدى إلى توفير أسباب العيش الرغد لهم، فجاءته ابنته الحبيبة فاطمة وقالت له: لقد أصيبت يداي بتقرحات وثآليل من شدة العمل. لقد أخذ الناس أموالا وعبيدًا، وأرجو أن تعطَى لي إحدى الإماء لأن لي أطفالاً صغارًا أيضا. فقال النبي ﷺ: هذه التقرحات أفضل

---

[53] السيرة النبوية لابن هشام، طلب أبي طالب إلى الرسول ﷺ الكف عن الدعوة وجوابه له.

من أن أعطيك شيئًا من هذا المال، فكوني مسبحة راضية بالله تعالى في هذه الحالة لأنها أحب إلى الله تعالى.[54]

كان للنبي ﷺ حقّ في تلك الأموال، وكان يجوز له أخذ جزء منها ولكنه لم يأخذ شيئا من تلك الأموال نظرًا إلى شدة حاجة المسلمين إليها، وتحمّل مشقة ابنته الحبيبة.

أما تضحيته بمشاعر زوجاته فقد سبق ذكرها.

التضحية بمشاعر الأصدقاء

وأقدِّم واقعة أبي بكر رضي الله عنه مثالا. كان أبو بكر رضي الله عنه يتحاور مع يهودي وأثناء الكلام فضّل اليهودي موسى عليه السلام على النبي الكريم ﷺ مما أثار حفيظة أبي بكر فشدّد على اليهودي، ولكن لما بلغ النبي ﷺ هذا الأمر غضب من أبي بكر رضي الله عنه وقال ما كان لك أن تتخاصم مع ذلك الشخص.[55]

قد تبدو هذه التضحية أمرًا عاديًا ولكن العقلاء يعرفون أن الملك الذي يكون محاطًا بالأعداء كل حين وآن أحوج إلى احترام مشاعر أصدقائه من أي شخص آخر، ولكنه لم يبال بمشاعر أصدقائه أيضا من أجل إراحة الآخرين.

---

[54] البخاري، كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ.

[55] البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص.

وأقدم مثالا ثانيا على ذلك حدثًا شهيرًا حصل في صلح الحديبية. كان من شروط هذا الصلح أنه إذا أسلم أحد وهرب من مكة إلى المدينة فعلى المسلمين إعادته. ولكن إذا ارتدّ أحد عن الإسلام ولجأ إلى أهل مكة فلن يُعاد إلى المسلمين، وبينما كانت هذه المعاهدة قيد الكتابة إذ جاء النبيَّ ﷺ أبو جندل هاربًا من مكة، كان جسده مرهقًا من شدة تعذيبه بسبب إسلامه. فلما رآه المسلمون في حالة يرثى لها تولدت في قلوبهم عاطفة المواساة الكبيرة له، ومن ناحية ثانية شعر الكفار بهزيمتهم في مجيئه بهذه الطريقة فطالبوا بإعادته حسب المعاهدة، ولكن المسلمين وقفوا صامدين أنهم لن يرجعوه مهما يكن من أمر، وقالوا بأننا لم نبرم المعاهدة بعد فلا يحق لأهل مكة المطالبة به، ولكن لما كان النبي ﷺ قد وافق على إرجاع كل من يأتي مسلمًا من مكة لذلك فقد أمر بإعادته، وهكذا ضحى بمشاعر المسلمين من أجل الوفاء بالعهود.[٥٦]

التضحية بالمال

لا حاجة إلى إيراد مثال خاص على التضحية المالية للنبي ﷺ لأن الجميع يعرفون أنه أخذ يضحي بالأموال منذ أن بدأت تأتي إليه. فأول ما تلقاه كان مال خديجة رضي الله عنها فوزّعه فورًا على الفقراء. ثم لما أصبح حاكمًا في المدينة لم يتقاضَ حقوقه بل ظل يعيش حياة بسيطة

[56] البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

وأنفق على رعاية الفقراء قدر المستطاع إلى درجة أنه لم يكن يأكل شبعًا. فلما علم الصحابة أن النبي ﷺ ينفق جل أمواله في سبيل الله ارتأى الأنصار- الذين كانوا يعدّون أنفسهم مضيفيه لكونهم أصل سكان المدينة- أن يرسلوا الطعام هدية إلى بيت النبي ﷺ، ففعلوا ذلك، إلا أن النبي ﷺ كان يوزعه على الضيوف وعلى الفقراء الذين كانوا يظلون في المسجد من أجل تعلّم الدين. وظل على دأبه هذا حتى أنه لم يكن في بيته شيء للأكل يوم وفاته.

ولا يعني الحديث: ما تركناه صدقة.[٥٧] أنه ترك مالا ثم اعتبره صدقة بعد وفاته، بل معناه أنه ليس في بيتنا ما نملكه بل كل ما فيه هو مال الصدقة، ومالكه هو بيت المال وليس أهل بيتنا. والمعنى الأول يخالف التعاليم الإسلامية لأن الوصية بجميع الأموال تخالف تعليم القرآن. فليس صحيحًا معنى الحديث أنه ترك مالا خاصًّا به وعدّه صدقة في سبيل الله.

باختصار، كانت حياة النبي ﷺ كلها نموذجًا نادرًا للتضحية المالية.

التضحية بالشرف والعزة

إن التضحية بالشرف والعزة تضحية كبيرة وقليلون من يتشجعون على ذلك. نجد أمثلة كثيرة على ذلك في حياة النبي ﷺ، وأحد هذه الأمثلة واقعة صلح الحديبية. لقد أملى النبي ﷺ عند إبرام هذه المعاهدة

---

[57] مسلم، كتاب الجهاد والسير.

أنها بين محمد رسول الله وبين أهل مكة، وكان علي ﷺ يكتب هذه المعاهدة. طالب الكفار بمحو عبارة "رسول الله" بحجة أنهم لا يحسبون النبي ﷺ رسولا. فقال النبي ﷺ: امحُها. كان علي ﷺ نشوانًا في حب النبي ﷺ فقال: لن يتأتى ذلك مني أن أشطب عبارة "رسول الله" من هذا النص، فقال النبي ﷺ أرني، ثم شطب بيده عبارة: رسول الله.[58]

قلما يقدر الناس على تقديم مثل هذه التضحية من أجل إقامة الصلح والأمن. كان النبي ﷺ في ذلك الوقت في حالة المنتصر الفاتح وكان جيشه يفور حماسًا وغضبًا ضد مظالم أهل مكة. أما أهل مكة فلم تكن بيدهم حيلة، كانوا أقل ناصرًا وجندًا من المسلمين، فكان يستطيع بكل سهولة معالجة كلامهم المهين والساخر، إلا أنه كان حريصًا على ألا تنشب الحرب في هذا المكان المقدس ولا تهتك حرمته، وقد قرر الله تعالى أن يجتمع فيه الناس ويعيشوا في حال الأمن وينتبهوا إلى مهمة إصلاح النفس وإصلاح العالم، ولأجل ذلك كان يقابل كل كلمة مسيئة بصمت مطبق.

والمثال الثاني على ذلك هو أن العبيد كانوا يَلقَون معاملة مسيئة ومهينة جدًّا في ذلك العصر، أما قبيلة النبي ﷺ فكانت تحظى بشرف وشأن كبيرين. وكان زعماء القبائل الكبيرة يرون تزويج نسائهم في قبيلة النبي ﷺ شرفًا وفخرًا لهم. مع كل ذلك زوّج النبي ﷺ ابنة عمته

---

58 البخاري، كتاب الصلح.

من عبدٍ أعتقه. وكانت هذه تضحية كبيرة بالشرف والعزة. ولقد أعطى النبي ﷺ من خلال تضحيته هذه درسًا بأن الناس سواسية عند الله تعالى ولا فضل لأحد إلا بالصلاح والتقوى والإخلاص والأخلاق.

والمثال الثالث على هذا النوع من التضحية هو قصة اليهودي الذي كان النبي ﷺ مدينا له. فجاء وتكلم معه بكلامٍ قاسٍ مع أنه لم يكن قد حان بعد موعد سداد الدين، إلا أن النبي ﷺ اعتذر إليه ثم أرسل أحد صحابته ليقترض مبلغًا من شخص معين فسدّد دين ذلك اليهودي. لقد أثار الكلامُ القاسي الذي تكلم به اليهودي حفيظة الصحابة وهب بعضهم لمعاقبته ولكن النبي ﷺ قال لهم: لا تفعلوا به شيئًا لأنني مدين له، وله الحق في المطالبة بدَينه[٥٩]. لقد حدث هذا لما كان النبي ﷺ قد أصبح ملكًا على المدينة والمناطق المجاورة الكثيرة، ولكل واحد أن يدرك أن تحمّل الكلام القاسي في مثل هذا الوضع تضحية عظيمة، ولقد تأثر به اليهودي أيضا فأسلم[٦٠].

والمثال الرابع على مثل هذه التضحية هو أن النبي ﷺ كثيرًا ما جعل أفراد عائلته تحت قيادةِ مَن كان دونهم نسبًا. كان زيد بن حارثة مملوكًا فأعتقه النبي ﷺ ثم أرسل تحت قيادته أخا عليٍّ رضي الله عنه جعفر الطيار رضي الله عنه في الجيش.

---

[59] البخاري، كتاب الاستقراض، باب استقراض الإبل.

[60] البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام.

كذلك كانت بنتاه ﷺ متزوجتين من ابنَي أبي لهب، فهدّد أبو لهب النبي ﷺ بتطليقهما من ابنيه إن لم يترك النبي ﷺ الدعوة إلى التوحيد، ولكنه لم يبالِ بكل ذلك، فأمر هذا الشقي ابنيه فطلقا بنتي النبي ﷺ.

إضافة إلى ذلك رميت القذارة عليه في مكة وبُصق في وجهه، ولُطم لطمة شديدة وجُذِبَ من تلابيبه. باختصار؛ قد تعرض لكل نوع من الإهانة إلا أنه ظل يتحمل كل ذلك من أجل أن يعلو اسم الله تعالى. كان يُعرَف بالصادق والأمين في مكة ولكنه لما تحمّل مسئولية رقي قومه سُمّي بالكاذب وطالِب الجاه والعز. فقَدَ احترامه السابق، واستُبدل ذلك بالكراهية والاستحقار، ولكنه تحمّل كل ذلك من أجل تحرير العالم من الجهل والأوهام وإقامة التقوى والصلاح فيه.

التضحية بالوطن

الوطن أغلى شيء في حياة الإنسان إذ إن الناس يضحون بأنفسهم من أجله. كان النبي ﷺ أيضا يحب وطنه، ولم يكن يريد الهجرة منه، إلا أنه قدّم هذه التضحية أيضا لوجه الله تعالى. ويمكن تقدير حبه لوطنه من الكلمات الأليمة التي نطق بها عند الهجرة منه. لقد حزن حزنًا شديدًا فألقى نظرة أخيرة على مكة وقال مخاطبًا إياها: "عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ

اللَّهِ وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ". [61]

لقد قدّم النبي ﷺ هذه التضحية مكرها، ولكنه بعد ذلك قدّم التضحية العظيمة بالوطن كنموذج ليس له نظير في العالم كله، فقد عاد النبي ﷺ إلى مكة بعد ثمانية أعوام من خروجه منها، وكان معه هذه المرة جيش قوامه عشرة آلاف جندي، فلم يستطع أهل مكة مقاومته وتم فتحها على يديه المباركتين، فدخل في مكة كقائد فاتح بعد أن خرج منها في حالة من الحزن الشديد بصحبة رفيق واحد فحسب. وكان مخرجوه منها إما ماتوا أو قبلوا طاعته، وكانت مكة تلتاع كالأم المضطربة لتحتضنه. ولكن على الرغم من حبه الشديد لهذه المدينة لكون بيت الله فيها فإنه من أجل الإسلام ومراعاةً لمشاعر القوم الذين آووه في ساعة العسرة قرر عدم الإقامة في مكة وعاد إلى المدينة، وكانت هذه المرة الثانية التي ضحى النبي ﷺ فيها بوطنه.

التضحية بالراحة

لقد تحمّل النبي ﷺ مصاعب كأْداء وظلّ يتحملها طول حياته. ظل الكفار يعرّضونه لصنوف من الإيذاء والتعذيب في مكة ولم ينعم بالراحة في المدينة أيضا لأن المنافقين أقضّوا مضجعه. إضافة إلى ذلك

---

[61] مسند أحمد، كتاب أول مسند الكوفيين.

كان النبي ﷺ يظلّ يعمل طول النهار وإلى منتصف الليل ثم يستيقظ ويتعبد لله تعالى، وهكذا ضحى بكل راحته. لم يلبس ملابس جميلة ولم يأكل أطعمة شهية، ولما طلبت منه زوجاته أموالا قال لهنّ لن تنلنها في حياتي. كل هذه الأمور تدل على أنه ضحّى بكل راحة في حياته.

التضحية بالأقارب

كان النبي ﷺ مستعدًّا كل حين أن يضحي بالأقارب أيضا، وأحد الأمثلة على ذلك حادث ارتكاب سرقة من قبل سيدة من عائلة كبيرة، فشفع لها بعض الناس، فغضب النبي ﷺ من ذلك غضبًا شديدًا وقال لن أكترث بأحد من أجل إقامة العدل، ولو كانت ابنتي فاطمة فعلت ذلك لعاقبتها أيضا.[٦٢]

لقد دل هذا الحدث على ما كان يجول في خاطره وما أكثر البراهين عليه. على سبيل المثال، كان الصحابة مستعدين للتضحية بدمائهم ونفوسهم من أجل النبي ﷺ مع ذلك كان النبي ﷺ يرسل أقاربه في أخطر المواقع في الحرب، وكان يجعل عليًّا رضي الله عنه في المقدمة دائمًا في كل غزوة، وكذلك الحال مع حمزة رضي الله عنه، وكانت النتيجة أن أعز أقاربه استشهدوا في الغزوات، فقد استشهد حمزة رضي الله عنه في غزوة

---

[62] البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد.

أحد وجعفر رضي الله عنه في سرية إلى الشام، كان الأول عم النبي ﷺ والثاني ابن عمه.

التضحية بالنفس

التضحية بالنفس تضحية عظيمة، حتى إن البعض خطأ منهم لا يحسبون تضحية حقيقة إلا التضحية بالنفس. لقد قدّم النبي ﷺ هذه التضحية أيضا لوجه الله ومن أجل بني البشر. لقد تحمل كل نوع من الخطر في سبيل نشر الحق. لقد مارس عليه أهل مكة أشد أنواع الظلم بجريرة دعوته إلى التوحيد، وأعلنوا عن جوائز لقتله، ولكنه لم يبال قط وظل يخاطر بحياته في هذا السبيل، فكان يقصد ألد أعدائه دون خوف ووجل من أجل تبليغه دعوة الإسلام، وتوجّه وحده مرة إلى الطائف التي كانت خاضعة لمن كانوا له أعداء ألداء. وكانت نتيجة تبليغه الدعوة هناك أن رؤساء الطائف جعلوا بعض الشبان الأشرار والكلاب يلاحقونه، فكانوا يلقون عليه الأحجار وكانت الكلاب تعضه. لقد لاحقوا النبي ﷺ إلى عدة أميال ورشقوه بالأحجار حتى أدمي جسده وامتلأت نعلاه بالدم. كان النبي ﷺ يسقط على الأرض من شدة الجروح والنـــزيف إلا أن هؤلاء الأشقياء كانوا ينهضونه من ذراعيه ثم يواصلون ضربه.

وفي إحدى الليالي أثيرت ضجة أن العدو قد هاجم المدينة فخرج الصحابة من بيوتهم واجتمعوا في مكانٍ لمعرفة سبب هذه الضجة. وبينما كانوا كذلك إذ رأوا النبي ﷺ آتيًا من الخارج، وتبين أنه خرج سابقا بمفرده من أجل معرفة حقيقة تلك الضجة خشية أن يداهم العدو المدينة على حين غرة من أهلها.[٦٣]

وهناك مثال آخر للتضحية بالنفس ظهر في غزوة حنين التي اشترك فيها كثير من الناس الذين لم يدخلوا الإسلام حقًّا بل انضموا إلى صفوف المسلمين بدافع قومي يوم فتح مكة، وبالتالي اندحروا أمام هجمة هوازن، وعند هروبهم من هناك جفِلتْ مطايا المسلمين أيضا وأخذت تهرب من الميدان وكانت النتيجة أنه لم يبق أمام جيش الأعداء المكون من أربعة آلاف جندي سوى النبي ﷺ واثني عشر صحابيًا. لقد صُبَّ عليهم وابل من السهام من كل جانب، وكان قتل هؤلاء أمراً محتومًا في ظل تلك الظروف. أراد الصحابة أن يخرجوا النبي ﷺ من ذلك المكان فأخذ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بلجام بغلته إلا أن النبي الكريم ﷺ قال: اتركوا لجامها وتقدّموا بدلا من التقهقر، ثم قال: أنا النبي لا كذب.[٦٤] أي لست بنبي كاذب، وفي هذه الحالة لست أبالي بحياتي في هذا السبيل.

---

[63] البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق.

[64] مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة حنين.

أما في غزوة أُحُد فتقدم أحد أكبر أعدائه لمهاجمته، ولما كان المهاجم قويًا محنكًا أراد الصحابة صدّه، ولكن النبي ﷺ منع الصحابة من ذلك وقال: دعوه يأتِني، فما دام يريد مهاجمتي فلا بدّ أن أردّ عليه.[٦٥]

ولما قدم المدينة بدأ الأعداء يحيكون ضد النبي ﷺ مؤامرات خفية علاوة على خوضهم الحرب ضده. ففي إحدى المرات أُرسل شخص من مكة لقتل النبي ﷺ خفية إلا أنه لم ينجح في كيده وقبض عليه. كان اليهود أيضا بالمرصاد لقتله، فلقد دعوه مرة في حيّهم وأرادوا أن يسقطوا على رأسه حجرًا إلا أن النبي ﷺ علم بكيدهم فرجع.[٦٦]

ومرة دعته امرأة يهودية إلى الطعام إلا أنها سمّمته، ولم يكد يتناول منه لقمة حتى أخبره الله تعالى عن حقيقته.[٦٧]

عند العودة من غزوة تبوك تقدم بعض المنافقين وكمنوا في الطريق وأرادوا مهاجمته في الظلام وقتله، ولكن الله تعالى أطلعه على ذلك، فعفا النبي ﷺ عن هؤلاء أيضا.

باختصار، لقد شنّت عليه هجمات خطيرة وكثيرة حتى ليمكن القول أنه لم يمض يوم إلا وكانت محاولات لقتله، وكان السبب الوحيد في ذلك هو مناداته بالتوحيد ودعوته إلى التقوى والأعمال الصالحة. فلقد

---

[65] السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٨٩ طبعة مصر ١٩٣٦.

[66] السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٩٩-٢٠٠ طبعة مصر ١٩٣٦.

[67] السيرة الحلبية، ج٣ ص٦٣-٦٥ طبعة مصر ١٩٣٥

كان النبي ﷺ يخاطر بنفسه يوميًا واستمر في نشر الصدق وإقامة الحق. والعجب أن الناس يبجّلون أولئك الذين وجدوا فرصة للتضحية بأنفسهم فضحّوا بها ويصفوهم بالمضحّين الكبار، ولكنهم لا يعترفون بتضحية هذا الرجل العظيم الذي قدم التضحية بنفسه يوميًا من أجل الحق. والحق أن الله تعالى قد عصمه من يد الأعداء لبعض مصالحه وحكَمه، ولكن التضحية هي المخاطرة بالنفس، ولا يكون تقصيرا من الشخص أنه لم يمت مع أنه ظلّ يعرّض نفسه للخطر كل حين وآن.

التضحية بذريته المستقبلية

لم يضح النبي ﷺ من أجل رقي العالم بنفسه فحسب بل ضحّى بذريته المستقبلية. وهذه التضحية عظيمة الشأن. لقد لوحظ عمومًا أن الناس يقدمون تضحيات كبيرة لينتفع بها أولادهم. وإن التضحية بالأولاد في كثير من الأحيان تكون أعظم من التضحية بنفس الإنسان، ولقد قدّم النبي ﷺ أسوة رائعة لهذا النوع من التضحية أيضا. لقد حرّم النبي ﷺ على أولاده أموال الصدقة[٦٨]. إنَّ شخصًا حكيمًا مثل النبي ﷺ على دراية كاملة بأن الزمن لا يبقى على حال واحدة ويمكن أن يأتي على أولاده أيضا وقت يحتاجون فيه إلى مساعدة الآخرين، ولكنه مع كل ذلك حرّم الصدقة على أولاده. أي أنه أغلق على أولاده ذلك

[68] البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل....

الباب الوحيد المفتوح للنهوض بالفقراء، وليس من سبب آخر في قراره هذا إلا أنه فكّر في أنه لو أجيز لأولاده أيضا تلقي الصدقة لتصدق الناس بمعظم صدقاتهم على أولاده نظرًا إلى علاقته بهم على شاكلة أولاد أنبياء بني إسرائيل، وبالتالي سيظل الفقراء الآخرون يعانون من ضيق العيش والفاقة، فإنقاذًا للفقراء المسلمين الآخرين من مشقتهم حرم النبي ﷺ أولاده من الصدقة، وكأنه ضحّى بأولاده من أجل المسلمين الآخرين. ما أعظم هذه التضحية وأروعها! لو أدرك المسلمون حقيقة هذه التضحية لما بقي أي فرد من السادات يعاني ضيق العيش، وذلك لأنه كما ضحى النبي ﷺ بأولاده من أجل المسلمين الآخرين كذلك على المسلمين أيضا أن يقوموا بتضحية رائعة مقابل تضحيته ﷺ، وباب الصدقة الذي أغلقه النبي ﷺ ينبغي أن يفتحوا عوضا عنه باب الهدية.

باختصار، لقد قدّم محمد رسول الله ﷺ للعالم تضحيات عظيمة يندر أن يوجد لها نظير في العالم كله. لقد جاء إلى هذا العالم خالي اليدين، وعاش فيه خالي اليدين على كونه ملكًا، وغادر هذا العالم خالي اليدين. لقد ظل ينفق ويعطي كل ما كان عنده في حياته، وبعد وفاته أيضا أعطى كل شيء للآخرين، أي لم يوصِ بالخلافة لذريته بل تولاها أناس آخرون. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وعلى خلفاء محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

النصيحة

يسيء الناس اليوم إلى هذه الشخصية العظيمة ويحاولون أن يحجبوا ذاته النيرة. ولكني أرى أن الجادين والنبلاء من الناس من جميع الأديان بعد اطلاعهم على إحسانات النبي ﷺ وتضحياته وطهارته سيتعلمون احترامه. وبعدّهم إياه محسنًا إلى بني البشر سيعتبرونه نبيًا لهم أيضا مثلما يؤمنون بأنبياء قومهم، والمسلمون أيضا سوف يعرفون سيرته وأحداث حياته أكثر ويسعون لاقتفاء آثاره، ولن يكفروا بهذه النعمة العظيمة التي حباهم الله تعالى بها، وبدلا من الإعراض عن الدين سيسعون جاهدين للعمل بأحكامه، وبدلا من التمتع بالعيش وملذاته يعتادون على التضحية من أجل الآخرين ويحاولون نفع العالم كله. وفقهم الله تعالى لذلك. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بفضل الله ورحمته- هو الناصر

رحمة للعالمين ﷺ

العقل البشري من أعجب ما خلق الله تعالى، فإنه يمرّ بشتى الظروف والأحوال، فتارةً تستهويه أدلة الفلسفة، ويحلق في أجواء الوجدان تارةً أخرى، تغوص به غوامض العلم إلى الأعماق السحيقة حينًا وتسمو به أنواء الهيام إلى الأعالي أحيانًا. كانت إحدى هذه الأحوال تملكتْ كياني، كنت مستغرقا في التفكير في حياة الرسول ﷺ، وكان عقلي يحاول أن يدرك حدودها، فإذا بقلبي أخذ يطغى عليّ، وجعلَت السباحةُ في هذا الخضم- الذي لا تُعلم سواحله- فكري محرّرًا من جميع القيود، فتحرر من قيود الزمان والمكان وأخذ يحلق في أجواز السماء مجتازًا مدى إمكانياته وقوته.

رحمة للسماوات

ارتفعت أنظاري نحو السماوات، فرأيت فيها شمسًا وهّاجة، ونجومًا متلألئة، ما أبهى منظرها! وما أشد اختلابها للقلوب! كان كل شعاع من أشعتها متلألئًا بتباشير المحبة، بدا لي وكأن محبوبًا يتطلع إلى الكون من

وراء الأضواء المتلألئة، فأخذ هذا المنظر من قلبي كل مأخذ، كنت أستشف في تلك الأضواء صورةَ أحدٍ، أي صورة الحبيب الأزلي الذي هو أصل جامع لكل المحاسن، وكان يغمرني عندئذ شعور مَن قال بالأردية ما معناه:

لقد اضطربت أشد الاضطراب لما رأيت بدرًا منيرًا بالأمس، وذلك لأنه كان يحمل بعض سمات جمال حبيـــبي.

لا أدري إلام كنت سأظل غارقا في هذا التفكير لولا أن رأيت قرص الشمس وقد أخذ يصفر وبدأت أضواؤها تتضاءل، وبدا لي القمر والنجوم وكأنها تغور وتختفي، وكأن الذي أعارها النور قد انسحب من ورائها، وكأنها حُرمتْ من نور ذلك الوجه الوضاء المتطلع من وراء الأضواء، فأصبحت تلك الكواكب السيارة المتدفقة بالنور والحياة وكأنها كتل من التربة الهامدة. فتلفّتُ يمنة ويسرة تائه الأنظار زائغ الأبصار وتساءلت: ما الذي سيحدث الآن؟ فإذ ببصري يقع على أمثالي من بني الإنسان في أعماق الأرض، ورأيت ألوفا بل ومئات الألوف من عقلائهم في الظاهر مكبّين على رؤوسهم أو جاثمين يذوبون بكاء وتضرعًا بدعاء آلهتهم، منهم من يستغيث بالشمس إلهًا: يا إلهي! نوِّر داري المظلمة بأشعتك، وعمِّر حضن زوجي العقيم بالأولاد، واقضِ على أعدائي. ومنهم من يقول: يا إلهي القمر! نوّرْ ساعاتي الحالكة بأضوائك الباهرة، وأبعِد الهموم والآلام عن دارنا. ومنهم من ينادي:

أيتها النجوم، أنتِ مدعاة أفراحي وسروري ومنابع راحتي وحبوري، يا أيتها الزُّهَرَة، عمّري بيوتنا بالحب واصرفي إلينا قلوب أحبائنا، ويأيها المريخ، لا تصبّ علينا جام غضبِك ولا تجعلنا عرضة للمصائب، وحوّل غيظك إلى أعدائنا.

راعَ قلبي كثيرا هذا المنظر الفظيع، وقلت في نفسي: ما أشقى الإنسان الذي جعل من هذه الأشياء الرائعة الجمال كياناتٍ فظيعة مروّعة! إذا أخذ العاشق يهوى خمارَ الحبيب بدلا من وجهه، ويشغف بجمال لباسه لاهيا عن جماله الحقيقي، خرج منه الحبيب ورمى لباسه إليه قائلا: اذهب وتمتعْ برؤيته، فإذا بذلك اللباس الذي كان على جسم محبوبه يجمع كل نوع من الجمال قد أصبح قبيحًا ورديئًا. فقلت في نفسي: هذه هي حال الأجرام السماوية أيضا، فما أجملها وما أروعها وما أجلها ما دام وجه الحبيب الأزلي يتجلى فيها! ولكن إذا تجردت عن ذلك الوجه وأصبحت ذاتها مقصودة تبددت روعتها، لأن علماء الفلك يحللون النجوم والأجرام في هذه الحالة ويحولونها إلى كتلة من المعادن أو كرة من الغازات. دفعتني هذه الأفكار إلى النظر بكل تحسر إلى السماوات وإلى جمالها الزائل الذابل، ثم نظرت إلى الإنسان وعقله الضائع. وبينما كنت تائها في هذه الخواطر فإذا بصوت خلابٍ أطرَب وأحلى من الألحان، يستأسر القلوب ويمتلك الألباب، يتناهى إلى أسماعي وقال لي بلهجة ملؤها الجلال والجزالة: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٦٩] واعلموا أنه خلق الشمس والقمر والنجوم وهي خاضعة لإشارته وتابعة لحكمه وخادمة له، ألا هو الخلاق وله الحكم وحده.

ما أشد تأثير ذلك الصوت! وما أملكه للنفوس! بدت الأرض وكأنها أصيبت بقشعريرة لقوة ذلك الصوت، وأصبح بنو الإنسان وكأنهم أفاقوا من سباتهم، فنهضوا بوجوه تعلوها ألوان الندم والخجل والحياء، فتقدموا إلى خالقهم فخضعوا له، واستردت السماء جمالها وعاد الحبيب الأزلي يتطلع إلى العالم من وراء أنوار الشمس والقمر وأضواء النجوم، وصارت كل ذرة من ذرات العالم مظهرا لجلال الله عز وعلا، وبدت آراء علماء الفلك ونظرياتهم تافهة، وصاح في وجوههم العشاق متبرئين: اضربوا بنظرياتكم الغازية والمعدنية عرض الحائط، إذ إنكم تتمسكون بالقشور ولا تستشفونها لينفذ بصركم إلى اللباب، ولا ترون جمالَ مَن يشرق وراء ركام المعادن ودخان الغازات، ويد مَن تعمل وراء هذه الأنوار. فرأيت تربة القمر الخامدة- التي يزعمها علماء الفلك هامدة ميتة بعوامل آلاف السنين- متهللة. مالها وللبرودة والحرارة، مالها ولموتها وحياتها، بل كل ذرة من ذراتها تشرق طربا وحبورا بأنها تشرفت لتُسمّى من اليوم فصاعدًا آية من آيات الله. وهنا نَخَز شيء في قلبي فتنفست الصعداء وقلت: كان هذا الصوت رحمة للأجرام السماوية.

---

[69] فصلت: ٣٨

رحمة للملائكة

ثم أَجَلْتُ النظر أكثر، ورأيت في عالم التصوُّر في السماوات العلى خلقا في غاية الجمال والطهارة، وكنت قد رأيت وجوههم في عالم الكشف والرؤيا، ورأيتهم في هذا العالم على صورهم التي رأيتها في الكشف سابقا تماما، وكانوا في غاية الوداعة، ذوي أجسام لطيفة لا يبصرها إلا أصحاب الأنظار الروحانية، كانت صورهم بريئة وسيرهم طاهرة، وهم جادون كادحون غير حافلين بمرور غداة ولا عشي، كأن كل دقيقة من ساعاتهم خاضعة لخدمة مولاهم، وكأنهم آلات متحركة بإشارة سيدهم، لكنني أبصرت بعين الفكر آثار الحزن على وجوههم الجميلة المشرقة، وكانت تبدو على نضرتها مسحة من الكآبة. وبحثت في السماوات عن الداعي لهذا الحزن دون أن أجد شيئًا موجبًا له، كان مولاهم راضيا عنهم وهم راضون عنه، فما الذي كان سببًا لهذا الهم يا ترى؟ فأعدت النظر إلى الأرض، فإذا أنا بمنظر مهول ومروّع. رأيت مباني شامخة شيّدت باسم تلك الأرواح السامية المقدسة، فوجدت فيها تماثيلها التي كان الناس يعبدونها، وألفيت هناك رجالا جساما ذوي جبب فضفاضة، كانوا يتظاهرون بالجدية على وجوههم وكأن علوم الدنيا كلها تجمعت في رؤوسهم، ويقولون لمن حولهم وكأنهم يفضون إليهم سرًا عميقًا لا يدركه الناس إلا بعد أن يستهلكوا أعمارهم متعبدين، ويتجشموا عناء المجاهدات لعشرات السنين، وكانوا يقولون

لهم: إن الملائكة في الواقع– والعياذ بالله– بنات الله[70]. وخير طريق لاستمالة الله حسب أهوائنا أن نستولي على بناته هؤلاء. أي أنهم كانوا يدلّون الناس– حسب زعمهم– على العبادات التي تحقق لهم هذه الغاية.

كانت وجوه الناس حولهم تتهلل سرورًا، فكانوا يفدون بحياتهم هؤلاء العلماء المتبحرين. ثم التفتُّ إلى ناحية أخرى فإذا أنا بأناسٍ آخرين لابسين جببًا كالسابقين وكانوا واقفين عند بئر مع لفيف من أتباعهم ويتناجون فيما بينهم، وكانوا يتكلمون معهم وكأنهم يطلعونهم على سرٍّ عميق وهو أنه قد حُبس في هذه البئر الملكان هاروت وماروت بجريرة وقوعهما في غرام عاهرة، كان بعض هؤلاء المتجببين يصرون على أنهما ما زالا محبوسين هنا في البئر، وبعضهم كانوا يزعمون أن أحد أساتذتهم رآهما معلقين في البئر رأسا على عقب، الأمر الذي كان يهز أبدان أتباعهم، وآنئذ عرفت أن الإنسان لم يكف عن الاعتداء حتى على الملائكة. وبينما كنت في تلك الدهشة مما رأيت فإذا أنا بنفس ذلك الصوت الأخاذ الحلو الذي كان ينبعث بامتزاج عجيب من الحب والجلال، وكان يقول: إن الملائكة هم عباد الله وليسوا بنات الله[71]، إنهم يطيعون الله حق طاعته، ولا يعصون الله ما أمرهم[72]، فتنبه الناس

---

[70] انظر: الإسراء : ٤١

[71] انظر: الزخرف : ٢٠

[72] انظر: التحريم : ٧

من سباتهم وصحوا من غفوتهم، وتندموا على عقائدهم البالية، وهدمت تلك المباني الشاهقة التي شيدت باسم هذه البنات المزعومة لله، وأسست في مكانها معابد باسم الله الواحد القهار، وتخربت تلك الآبار التي كانت تذكارا لعصيان الملائكة، وصارت معطلة لا يزورها زائر، فرأيت الملائكة مستبشرين كأن غاسلا قد نقّى ثيابَهم بعد أن اتسخت ببعض البقع الدنسة، فأطلقت تأوّها آخر، وقلت إن ذلك الصوت كان رحمة للملائكة أيضا.

رحمة للزمان والدهر

ثم انصرفتُ عما سبق وتوجهت بنظري نحو الزمان، فقلت ما أقدمَ الزمانِ؟ ومنذ متى هؤلاء الملائكة قائمون بأعمالهم؟ ومنذ متى هذه الشمس والكواكب حولها تؤدي واجباتها؟ من يدري كم من تطورات شهدها الزمان؟ كيف ومنذ متى ظل الزمان مقياسا للأفراح والآلام؟ لو كان الزمان كائنًا حيّا لكان أفخر الكائنات بما قدّم لخلق الله من خدمات إلى أمد غير محدود. وبينما كنت في هذه الخواطر إذ رأيت وصمتَين في وجه الزمان، وسمعت أناسًا يقولون: إن الزمان غير فانٍ، وإنه أزلي وأبدي كالله تعالى تمامًا، وسمعت آخرين يدعون إن الزمان ظالم غشوم لأنه أودى بقريبي فلان، وإنه جائر لأنه عرّضني للدمار، فقلت في نفسي: لو كان الزمان كائنًا حيًّا لحزن من هذه الأقوال. وفي

تلك اللحظة سمعت ذلك الصوت نفسه يقول: إن الذين يزعمون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[73]، أو إنه إله بعينه فإنهم مخطئون، ولا يعلمون من الحقيقة شيئًا، لأن الإماتة والإحياء بيد الله وحده، فلا يبقى شيء إلا ما أبقاه الله، وليس الدهر له إلا كعرض من الأعراض. ثم قال ذلك الصوت: ما الدهر؟ إنما هو مظهر لصفات الله عز وجل، فإنكم تسبون الله عندما تسبون الدهر. فزاد قلبي دنوا إلى صاحب ذلك الصوت، فقلت بقلب يفيض بحبه: إن هذا الصوت كان رحمة للدهر أيضا.

رحمة للأرض

وانصرفت أنظاري عن الدهر إلى كوكب الأرض، فقلت في نفسي: إن أرضنا ليست أقل جمالا من الكواكب الأخرى، بل إنها أجمل منها بادي الرأي، لأن الكواكب الأخرى ليست إلا عاكسات الضوء، أما أرضنا فإضافة إلى كونها مضيئة، فهي تحتوي على أنواع من الخضرة وبدائع المناظر، وجبال مكللة بالأزهار، وأنهار رافلة، وعيون دفاقة، ووديان مظللة، وأشجار متدلية بالأثمار، وغابات متبرجة بالأزهار، وحقول مهتزة بالغلال، وطيور مغردة، ومواش وثّابة وحيوانات متقافزة في دلال وإعجاب، وغيرها مما لا يحصى. وتراءت لي آنذاك هذه الأرض جميلة حتى طفقت أرى وحوشها وثعابينها وعقاربها وحشراتها السامة

---

[73] الجاثية: ٢٥

الأخرى وبعوضها وجرذانها التي تسبب الطاعون، في غاية الجمال؛ ففكرت أن الأسد لا شك حيوانٌ متوحشٌ ويفترس الإنسان أحيانا، ولكن لولاه لَمَا اختبرنا شجاعة الشجعان ولَمَا وصفنا شجاعًا بقاهر الأسود، ولَمَا بقي للإنسان وسيلة لهذا الاختبار غير الاعتداء على بني نوعه، وهذا الوحش لا ينفعنا حيا فحسب بل يفيدنا ميتا أيضا؛ إذ إن شحمه وأنيابه ومخالبه وجلده دواء وزينة وزخرف.

وتبينت أن سمَّ الأفعى أنفع من لحمها، وقلتُ: لولا الأفعى لما وجد الدواء المعروف بـــ"قرص الأفعى"، ولولا العقرب لما شفي أصحاب حصوة الكلى بغير عملية جراحية، وكذلك لم أجد البعوضة غير وسيلة إنذار بجو رطيب وأرض حمئة، هذه الناموسة المسكينة كيف تنبهنا ليلا ونهارا وتخبرنا بأن مجاري الماء في البيت وسخة ونتنة، والمصارف الأرضية للمدينة مملوءة بالأوساخ، وأن الناس ساهون عن نعمة المياه ويضيعونها، وقصارى القول إنها لا تنفك تنبّهنا وتذكرنا بواجباتنا. وعندما ترانا لا نتحرك ولا نتجنب الكسل تغضب وتضطر إلى اللدغ. إن انتشار المرض لا يرجع إلى البعوض مثلما يرجع إلى كثرة الرطوبة الأرضية والمجاري المائية الوسخة المتعفنة وقذارة المصارف النتنة والمياه المهملة. باختصار، بدا لي في كل كائن مظهرٌ رائعٌ لجمال خالقه، وتمثلت لي في كل ذرة صورة الحبيب الأزلي، ولكن صعدت نظراتي فجأة إلى المدن والقرى، فإذا بالناس يسجدون للجبال والأشجار والأحجار والأنهار والحيوانات

ويتهافتون على القشور دون اللباب، فتعكرتْ طبيعتي الصافية وطغتْ على قلبي الكآبة والكراهية وعاد إليَّ الماء النقي الصافي مليئا بملايين الديدان ناهيك عن الأسد والأفعى والعقرب، وشعرت في المروج النضرة أيضا بروائح مثيرة كريهة من الخضرة الآسنة النتنة، ورأيت أن هذه الأرض لم تعد تصلح للبقاء ولا يوما واحدًا، وبدا لي وكأن كل شيء بها صار ميتا. وأن مناظرها الخلابة ليست إلا كتبرج العجوز العاهر التي لا تستطيع على الرغم من ألوف الحيل والحلي أن تستر قبح صورتها وسوء سيرتها. وبينما كنت في هذه الهواجس والأفكار إذ سمعت الصوت العذب والأخاذ نفسه وقد انبعث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[74] أي خُلقت هذه الأرض وما فيها لخير الإنسان، إن جبالها وأنهارها ودوابها وطيرها وثمارها وغلالها، كل تلك الأشياء إنما تهدف إلى أن تتنوع أعمال الإنسان، وأن يتقرب بها إلى خالقه عز وجل باستخدام هذه الأمانات على الوجه الأمثل. إن كل ما يتراءى من هذه الأرض من حسنٍ أو قبح بادي الرأي بلاءٌ للإنسان، فبورك من يستفيد به ويتقرب إلى الله. ما أن سُمع هذا الصوت إلا بدا وكأنه قد أزيح ثقل عظيم عن رأس كل ذرة من ذرات العالم، وأصبح هذا العالم نفسه يتراءى لي جنةً، وبدا لي كأن جنة الآخرة ليست إلا حلقة من حلقات جنة الدنيا. كم من أناس استمعوا إلى ذلك الصوت فأسرعوا إلى

[74] البقرة: ٣٠

خالقهم تائبين من الشرك والبدعة متندمين على ما بدر منهم من الأخطاء! وبالتالي عادت الدنيا مظهرا لجلال الله، وعادت مَجَالِيَ لحبيب يتراءى فيها بروعة عظيمة. فتنهدت تنهيدة عميقة وقلت: إن ذلك الصوت كان رحمة للأرض أيضا.

رحمة للبشرية

لما أمعنت النظر في عبادات الإنسان دون سائر المخلوقات، وأبصرت توبته من أخطائه، وعاينت كفاحه المتواصل على عِلاته وزلاته اهتزّ قلبي سرورًا فقلت ما أروع هذا المخلوق في هذه الدنيا الفاتنة! وما أشد استهواءه للقلوب! ولكن بينما كنت أتمتع بهذا الشعور إذا بأناس مرتدين حللا سوداء، بدوا من لحاهم المتفرعة وسبحاتهم الفخمة ووجوههم الجادة كما لو أنهم علماء الدين. تحلق حولهم حشدٌ من الناس يرهفون السمع إليهم باهتمام ويتأثرون بأقوالهم أيما تأثر. بدا لي وكأن معظم أهل الدنيا راحوا ضحية سحرهم. كانت تعلو وجوههم آثار العلم ويفوح من أقوالهم عبير الحب والمواساة. فخاطبوا الناس قائلين: يا أيها الأشقياء، عَلَامَ تفرحون؟ ولأي أمل تعيشون؟ ألم يبلغكم عن الهوة السحيقة من النار التي حفرها لكم آباؤكم؟ إنها النار الأبدية التي تضطرم بالكبريت، وتنتظركم تلك الظلمات الحالكة جدًّا بحيث تبدو في مقابلها ظلمات العالم أنوارًا.

فلماذا أنتم فرحون مسرورون إذًا؟ وبأي وجه تطلبون النجاة؟ وكيف تجرأت قلوبكم أن تتمناها؟ ألا تدرون أن الطاهر والدنس لا يلتقيان؟ ولم يعد باستطاعة أحد أن يغير الماضي؟ من منكم يدعي الطهارة وأنه يستحق لقاء الله؟ من منكم يدعي أن بإمكانه أن يتطهر بنفسه؟ لأن الشريعة تُدنّس ولا تُطهر[٧٥]، وأنّ أحكامَها سبب للعصيان لا للطاعة. ومن يسعه العمل بجميع الأحكام؟ في حين أن الذي يرفض حكمًا بسيطًا منها فسيصبح عاصيا. أليست قطرة أو ذرة من النجاسة تنجس كل ما تقع فيه مهما كان ذلك الشيء طاهرًا ونقيًّا؟

فكيف يمكنكم إذن أن تظنوا أنكم أطهارٌ أو باستطاعتكم أن تكونوا طاهرين؟ أنسيتم أن أباكم آدم اقترف إثمًا ونسي نعمة الله عليه فأزله الشيطان هو وزوجه التي هي أمكم وجعلهما من العصاة والآثمين[٧٦]، فكيف تظنون أنكم لا ترثون معاصيهما وأنتم من أولادهما؟ أترجون أن تستولوا على ثروة آبائكم وتركتهم ولا تؤدوا دَينَهم؟ وتلقوا حسناتهم ولا تصيبكم سيئاتهم؟ وإذا ورثتم الخطيئة فكيف تتقون لعنة هذا الميراث؟ أتزعمون أن الله سيغفر لكم؟ ألا تعرفون أيها الجهلة أنه رحيم وعادل أيضا، وأن رحمته لا تخالف عدلَه، فكيف يمكنه أن ينسى عدله لأجلكم؟

---

[75] انظر: رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١١-١٣

[76] انظر: سفر التكوين ٣: ١٣

لقد لاحظت أن خطاباتهم كان تفيض بتيار جارف قوي من اليأس بحيث تنسف جبال الآمال كلها، فذبلتْ بسبب الحرمان واليأس الوجوهُ التي كانت قبل قليل تتهلل بالسرور، وبدت لي الدنيا وأهلها ألعوبة بل دمية محطمة. وبعد شيء من الاستراحة عاد العلماء إلى صراخهم وقالوا: لا تيأسوا من آمالكم وإن تحطمت لأن هناك طريقًا لتحقيقها، وإن إنذاركم مقترن ببشارة. لقد اقتضى عدلُ الله عقابَكم، لكن رحمته أنقذتكم، وذلك لأنه بعث إلى الدنيا ابنه الوحيد لكي يصلب وهو بريء ويُعَدّ كاذبًا وهو صادق. فتمثل في الدنيا بصورة المسيح فصلبه اليهود دون أية جريرة ارتكبها، فتحمل عبء جميع المؤمنين به وبالتالي صار ذريعة لنجاتهم[٧٧]. فآمنوا به يحملْ خطاياكم. وبهذا سيتحقق عدل الله تعالى ورحمته أيضا وينجو العالم.

لقد رأيت أن اليأس قد زال ثانية وأخذ الناس يتقافزون فرحًا، فاحتفل العالم بعيدٍ لم يسبق له نظير، فاندفع الناس وتمسكوا بالصليب الذي نجاهم فأخذوا يقبلونه متحمسين تارة ويضمونه إلى صدورهم تارة أخرى، وتلقَّوه بحماس مفرط إلى حد الجنون، غير أنني رأيت بعد أن ساد الهدوء بعد فورة الحماس أن بعض الناس كانوا يتهامسون قائلين: لا شك أنه يستحيل أن يتجنب الإنسان ارتكاب الاثم، ولكن رسالة أمل المستقبل ليست مفهومة. إذا كان العدل واجبًا على الله فلا بد أن يكون

[77] انظر: رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤: ٩

ابنه أيضا عادلا. وإذا كان العفو عن الآثم يناقض العدل، فعقاب البريء أيضا يناقض العدل؛ فكيف تسنى إذن لابن الله حمْل خطايا الناس بحيث أخذه الله بخطاياهم رغم كونه بريئا؟

ثم قالوا: لقد أُخبِرنا أن الموت جزاء الخطيئة، فما دامت الخطيئة ليست باقيةً الآن فكيف بقي الموت الذي هو جزاؤها؟ إذًا فالعفو المطلق عن الآثام يترتب عليه انقراض الموت الذي هو عقابها.

ثم اعترف بعض الناس بأنهم لا زالوا يخطئون فتصدر منهم الآثام. فإذا كانت الخطيئة الموروثة قد زالت عنا بتاتًا فلماذا نندفع إليها الآن رغم الاتقاء؟ ولما سمعهم الآخرون يتحدثون عن هذا الأمر تشجّعوا وانبروا قائلين: نحن أيضا نذنب، وقال الآخرون: تصدر منّا الآثام أيضا.

ثم تصوَّرت هؤلاء الناس أنفسهم يقولون: لماذا خلقنا الله؟ ما أسوأ البشرية التي كانت تعدّ عندنا من المثل العليا! كيف أنها نبتت عن بذور الخطيئة وكيف نمت في جوها وكيف تغذت بها! وكانت الخطيئة لفّها ولفيفها! فماذا كان الهدف يا ترى من وراء خلق شيء فاسد كهذا؟ ما الذي يسمى بالجنة؟ ولمن هي؟ إذ لا يتراءى لنا إلا اليأس والقنوط، ولا نتبين إلا حقيقة السعير. فبينما كانوا يتخبطون في هذه الهواجس فإذا بذلك الصوت الحلو والمنعش- الذي كان قد حل معضلات هذه الدنيا من قبلُ مرارًا- ارتفع في الأجواء وسادت العالم

أنغام مطربة منبثة من صداه. فهب كل إنسان يصغي إليه وأخذ كل قلب يخفق بعواطف الرجاء والأمل. فارتفع ذلك الصوت وأعطى للعالم رسالة مفصلة في هذا الشأن، أُعبّرها بكلامي وأمثالي بالقول: قال ذلك الصوت: من يوقع اليأس في قلبِ أحدٍ فإنه المسئول عن هلاكه[78]. لا يمكن أن ينشأ الإيمان الحقيقي إلا بين جدران الخوف والرجاء، لا سيما إذا كان جانب الرجاء غالبًا على الخوف، فمن يقضي على الرجاء فكأنه يضاعف الخطيئة ولا يمحوها، ويثير الأخطار ولا يقللها. أخطأ آدم بلا شك، لكن كان ذلك نسيانا ولم يكن عزما أو عمدًا[79]. ومع كل ذلك ليس ضروريًا أن يرث الابن أباه في كل ما عَمِل. لو صح ذلك لظلّ ابنُ الأبوين الجاهلَين جاهلاً، وابن العالـمَين عالـمًا. ولكن ليس أبناء المسلولين مسلولين دائما، ولا أبناء المجذومين مجذومين. فالوراثة متحققة في بعض الأمور وليست لها أثر في بعضها الآخر، وقد خلق الله ﷻ وسائل للتخلص من الوراثة مهما كانت مؤثرة. ولو لم تتوفر الوسائل المؤدية إلى شل مخزون الوراثة لما بقي للدعوة والتعليم أي هدف يُذكر. إن إيمان أولاد الكفار يدل على أن قانون الوراثة لا يجري في الإيمان والكفر، ولو كان الإيمان أيضا منوطا بالوراثة لذهبت بعثة المسيح أيضا سدى وبلا طائل.

---

78 انظر: مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن قول: هلك الناس.

79 انظر: طه: ١١٦

وقال ذلك الصوت أيضا: إن الله ﷻ خلق الإنسان وزوّده بقوى صالحة، ثم بعض الناس يعملون على تنمية هذه القوى وتزكيتها فيفلحون، وبعضهم يدوسوها بأقدامهم فيخيبون. لا شك أن الشريعة كلها صالحة للعمل، لكن النجاة لا تتوقف على العمل وحده بل تتأسس على الإيمان الجاذب للفضل، والعمل وسيلة لإكمال الإيمان وتقويته، ولا شك أن له أهمية كبرى غير أنه ليس إلا وسيلة لكمال الإيمان، وقلة الوسيلة لا تبطل الغاية. الشجرة تنبت من البذر، لكن الماء هو الذي ينميها، والإيمان هو البذر، والعمل هو الماء الذي ينميه. لا يمكن أن تنبت الشجرة بمجرد وجود الماء، أما لو كانت هناك بذرة وكانت ضعيفة، فإنها تبدأ بالنمو ولو بقليل من الماء.

الفلاحون دائما يخطئون في الري لكن أخطاءهم لا تبيد الحقول ما لم يفرطوا في ذلك، إن العمل يجدد الإيمان، ونقصه ينقص الإيمان، لكن قلّته التي لا تمثّل شرا ولا بغيا ولا تكون مفرطة لا تودي بحرث الإيمان. أما إذا كانت هذه القلة تنبع عن الشر والبغي أيضا فلا يحول عدل الله دون التوبة عنه. ليس العدل إلزاما بالعقاب، بل العدل ألا يعاقَب البريء. فالعفو عن المذنب بالرحمة لا يعارض عدل الله؛ بل هو عين العدل. فإذا كان العدل مجرد معادلة الجزاء للعمل فليس للمغفرة والنجاة معنى، إذ لا تكون في هذه الحالة مغفرةُ الذنوب مخالفة للعدل بل الزيادة في جزاء العمل أيضا ستكون ضد العدل؛ لأن العدل يقتضي المعادلة، ولو صح

ذلك لاستحالت نجاة أحد إلا لأيام معادلةٍ لعمره، وستكون بقدر أعماله فحسب، وهو أمر لا يُسَلِّمُ به أحد، فلا ندري لماذا إذن تُحدَّد رحمة الله في هذه القضية؟

ثم قال ذلك الصوت: إن الله مالك، فلا يجوز تحديد إنعام المالك ولا مغفرته ولا عطائه. لا شك أنه يزن الأعمال، ولكنه يفعل ذلك لئلا ينقص حق المستحق، لا لئلا يزيد أحدا على حقه. لا شك أن المسيح كان إنسانا بريئًا من لوثة الإثم ورسولا من الله، ولكن الادعاء بأنه سيحمل آثام الناس ليس بصحيح. لا بد أن يحمل كل إنسان صليبه هو يوم القيامة، ومن لا يحمل صليبه بنفسه فلن ينال النجاة إلا أن يغفر الله له بفضله الخاص ويحمل بنفسه أوزاره، فلا تقولوا إن الإنسان مفطور على الشر، إلا من أفسد ما خلع الله عليه فهو فاسد، أما عباد الله فيستحقون أن ينالوا قربه ولا بدّ أن ينالوه.

لم يكد هذا الصوت يرتفع حتى تفتّحت منافذ القلوب وتوضحت علاقات الخالق والمخلوق. وحل الرجاء محل اليأس مقترنا بخشية الله، وانسد باب كل اتكال مغلوط وبطل كل استغناء غير لائق. فمن كانوا متخاذلي الهمم من قبل عادوا إلى كفاح التحرر من ربقة الشيطان، ومن كانوا قد تجاوزوا الحدود في تعليل النفس بالآمال وكانوا يفكرون فى تحميل الآخرين أعباءهم أسرعوا إليها واستقلوها بأنفسهم، فانقشعت غيوم الاضطراب وخيّمت الطمأنينة على القلوب، فأبصرت بعيوني

الروحانية أن البشرية أخذت ترقص فرحا وحبورًا، فأرسلت زفرة أخرى مثل التي تخرج من صدر عاشق بعيد عن حبيبه، ولمحت في الأفق البعيد موانع لامتناهية من الأبعاد الزمانية فأطرقت برأسي متحسرا، وانطلق لساني معبّرًا عمَّا يجيش بقلبي المفيض بالعواطف وقلت: إن ذلك الصوت كان رحمة للبشرية أيضا.

رحمة لبني البشر

تساءلت: هل كان ذلك الصوت رحمة لبني الإنسان أيضا كما كان رحمة للبشرية؟ هل الإنسان ينتفع به من الناحية الجسمانية؟ وهل هو محتاج إليه؟ بينما كنت مستغرقا في هذا التفكير فإذا أنا بأناس مفعمين بحب الله، فيتعبدونه ليل نهار وهم معلقون رأسا على عقب، ورأيت آخرين يذكرون الله قائمين في مياه باردة، ورأيت طائفة منتشين بحب الله قاعدين بين نيران مضطرمة يذكرون الله في حر لافح، وألفيت آخرين كتبوا على أنفسهم العزوبة وأن الرجل لن يلاقي امرأة ولا المرأة تلاقي رجلا، وبعضهم حرموا على أنفسهم الطيبات وتعاهدوا على أنهم سيحرمون أنفسهم من الأطعمة الشهية شيئا فشيئا. لقد تردد قلبي لما رأيت هؤلاء الناس جميعا في تلك الأوضاع. كانت تضحياتهم العظيمة تدفعني إلى تقديرهم من ناحية، ومن ناحية كان قلبي يتساءل: هل الله خلق كل هذه الروائع لكي يهملها الإنسان ويحرم نفسه منها؟ ثم ألا

يؤدي هذا إلى الاعتراض على الله بأنه خلق كل ذلك بغير فائدة إيجابية، ولم يَعْنَ بمصالح حقيقية؟ بينما كنت بهذا التساؤل إذ سمعت ذلك الصوت نفسه يرتفع، وشعرت كأن صاحب ذلك الصوت خبير بما يوجد في أعماق القلوب وتبينتْ له أغوار الفطرة الإنسانية، أو كأن وجودًا مطلعًا على سرائر الإنسان وعليمًا برغباته وآماله يسرد له ما في نفس الإنسان. وسمعت ذلك الصوت الذي لا توصف حلاوتُه، وروعتُه تزري بالأنغام الدنيوية كلها. أجل، سمعت ذلك الصوت يقول: يا أيها الطائشون، لا ينفعكم تظاهرُكم بالتبتل، وليس التعبد أن تذيقوا أجسامكم ألوان المشقة، بل التعبد الحقيقي هو طهارة القلوب، وليس من الشجاعة في شيء أن يفر المرء خوفًا من المعارضة، بل الشجاع هو الذي لا يرضخ للعدو في ميدان المعركة. لا يمكن أن يتولد الإثم مما جعله الله طاهرًا، إنما ينشأ الاثم من تجاوز حدود الله.

أيها السُّذَّج، ألم تروا أن الله عز وجل لم يفرض عليكم حقوقه وحدها؟ بل ما دام الله خلقكم اجتماعيين بطبعكم فقد فرض عليكم حقوق أصدقائكم وجيرانكم ومجتمعكم، بل فرض عليكم حقوق أنفسكم أيضا. فإن استعضتم عن هذه الحقوق كلها بالرهبانية فكأنكم ترتكبون عشر سيئات من أجل كسب حسنة واحدة، وبدلا من الخروج من وحول الإثم فإنكم تغوصون فيها عميقًا. إن إيثاركم حياة العزوبة لا يورثكم العفة، ولو كان انقراض بني الإنسان حسنةً لما خلقه الله أصلا.

أتعيبون ما خلق الله وتغيرون خلقَه؟ اعلموا أنه ليس البرّ بأن تعرّضوا أنفسكم للآلام دون أي مبرر، وأن تقفزوا فوق الحيطان مع وجود الأبواب، ولكن البرَّ أن تتمتعوا بنعم الله ضمن الحدود التي فرضها لكي تتولد فيكم الدماء النقية فتوفقوا للأعمال الصالحة.

كانت هذه النصيحة رائعة وطيبة بحيث رأيت أنها غمرت الوجوه الذابلة بنضرة الحياة، وكست المخلوق الفزع الخاوي- الذي كان يخاف حتى أشباح نفسه- حُلَّة الإنسانية، فأخذ ينظر إلى جمال الله وعظمته من وجهة جديدة؛ فالذين كانوا يعدّون كل كائن عدوا لهم، ويرون في كل جميل يدا للشيطان، والذين كانوا يظنون الدنيا محفوفة بالأعداء، وكانوا مشدوهين لاعتبارهم مخذولين في هذا المجال، رأيت وجوههم وقد علتْها السكينة والطمأنينة؛ فبدلا من أن يحسبوا كل شيء سمّا أخذوا يتبينون فيه فضائل الترياق أيضا، وعوضا عن أن يحسبوا أنفسهم محصورين بين الأعداء أخذوا يشعرون بأن الله قدّر لهم أنصارًا في كل خطوة، وضرب لهم معالم لإرشادهم عند كل محطة، فلما شعروا بذلك تندموا على استعجالهم وتأسفوا على جهلهم وأخذوا يشكرون الله على أنه لم يملأ هذه الدنيا بأعدائهم بل عمرها بأصدقائهم، وخرّوا سجدا لهاديهم ومربيهم مدفوعين بعواطف الشكر والامتنان، فأطلقت زفرة أخرى وقلت إن ذلك الصوت كان رحمة لنوع الإنسان أيضا.

رحمة للأنبياء السابقين

حينما شعرت أن الإنسان مفطور على البر والصلاح، وهو يتمتع بقوى كفيلة بتحقيق أسمى درجات التقدم وأن سبل قرب الله غير محدودة، قلت: دعنا نر شخصيات نابغة خلقها الله تعالى، ونطالع المثل العليا لنوع الإنسان لكي نتبين كمالاتهم التي حققوها والمعالي التي ارتقوا إليها، فرأيتني أخاطب الهنادك فسألتُهم أنكم تدعون كونكم أقدم الشعوب، وأن دينكم هو أقدم الأديان، فهل من شخصية نابغة ظهرت في دينكم؟ فسررت حين علمت أن هناك شخصيات بارزة من النوابغ قد ظهرت فيهم، فأثنوا على الريشيين[80] للفيدا وأخبروني عن "منو جي" وعرّفوني على "بياس جي" وقصوا عليّ أحوال "كرشن جي" وأطلعوني على أحداث سيرة "رام تشندر جي"، فتمتعت بأحاديثهم الشائقة عن كفاح هؤلاء العظام في سبيل إصلاح العالم، وعندئذ سألتهم أن يحدثوني أيضا عن مؤسس دين البوذيين الذين يجاورونهم، فقالوا بأنه كان إنسانًا مغرورًا ولم يكن من أولياء الله، فطلبت منهم أن يحدثوني عن أولياء آخرين، لكنهم ما برحوا يصرون على أن ديانتهم لهي أقدم الديانات، وأن الله قد هدى العالم بواسطة أوليائهم. وليس الله بحاجة إلى هداية

---

[80] الريشيون هم أربع شخصيات نزل عليهم كتاب الهندوس "الفيدا" في بداية الكون حسب اعتقادهم. (المترجم)

أحد إلى المعرفة الإلهية أو إنزال وحي آخر بعد هدايتهم. فعندئذ التفت نحو البوذيين وسألتهم عن أحوال مؤسسهم. فأخبروني من أحداث حياته ما كان ممتعا وأخاذا حتى أخذ حبُه بمجامع فؤادي ففاض، واعترفت لهم بأن مؤسسهم كان رجلا عظيمًا. إنه كابد الآلام ليريح الناس، وقاسى الشدائد لكي يخففها عن الآخرين، وبذل كل ساعة من حياته لخير الإنسانية. إن أحداث حياته تشبه تاريخ "كرشن جي" و "رام تشندر جي" وإنه كان نجمًا متلألئا في سماء الروحانية مثلهما، فلا أدري إذن لماذا لا يعدّه الهندوس صالحًا ولماذا لا يقدرونه؟ فردوا عليّ قائلين: إنك لمخطئ في هذه المقارنة، والحقيقة أنه لا وجه للمقارنة بين سيّدنا "غوتم بوذا" وبين "كرشن جي" و"رام تشندر جي" إذ إن ما تسمعون عنهما ليست إلا قصصًا وأساطير. والحقيقة أنه لم يكن بوسع أولياء الهندوس أن يدركوا مكانة مؤسسنا. لقد أصررت على موقفي أن ظروف أولياء كلا الديانتين متشابهة كما أن ظروف معارضيهم أيضا متشابهة جدًّا إلا أن البوذيين رفضوا ذلك و لم يقبلوا قولي هذا.

ثم توجهت نحو الزرادشتيين فسألتهم: هل من وليّ ظهر في ملّتكم؟ فقصّوا عليّ أحوال مؤسسهم "زرادشت"، فابتسمتْ لها أنوار قلبي وامتلأ صدري فرحة وحبورًا، لأن حياة هذا الرجل الصالح كانت درسا عظيمًا، إن نضاله ضد الشر والسيئة وجهوده لتوطيد دعائم الخير والحسنة، وكفاحه لتوجيه الناس إلى خالقهم، كان كل ذلك من العظمة

بمكان بحيث يُجْرِي الدماء الجامدة في العروق ويبثّ الحياة في القلوب الميتة. لقد وقفت على ظروف حياته واستفدت منها كثيرًا ثم قلت: إنه كان مثيل كرشن ورام تشندر وبوذا، وكان في الحقيقة جديرًا بأن نستفيد بأسوته ونسعى لاتباع آثاره؛ لكنني دهشتُ عندما رأيت أن أتباعه استنكروا ذلك استنكارًا شديدًا لأنهم عدوا قولي هذا نيلا من عظمة سيدهم، وقالوا لي: ألا تدري أن للهندوس علاقة مع الأرواح الخبيثة؟ أو لم تسمع أنهم يخضعون لآلهة مثل "إندر" وغيره، وإذا درستَ كتبنا عرفتَ أنها أسماء الأرواح الخبيثة، فكيف شبهت إذن أولياءنا بأوليائهم. فتضاعفت دهشتي التي كانت قد أثيرت سابقا جراء السلوك المتزمت للأقوام الأخرى، فتوجهت بكل حيرة وتعجب إلى الأقوام الأخرى فخاطبت اليهود واستطلعت منهم أحوال أنبيائهم، فقدموا لي سلسلة طويلة من أنبيائهم. لقد ذكروا لي بداية الدنيا وأنها كانت من آدم. وذكروا طوفان نوح وفتوحاته، وإبراهيم وانتصاراته، وسردوا لي أحوال إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وإشعياء وعزرا عليهم السلام وذكروا لي أعمال عشرات الأنبياء والأولياء الآخرين وخصوا بالذكر موسى بأنه كان نبيا عظيما واكتملت به الشريعة في العالم، وادّعوا أن أحكامَ شريعته كاملة ومحكمة بحيث لن يستطيع أحد أن يغير منها نقطة أو حركة ما دامت السماوات والأرض. لقد لاحظت أن إبراهيم وموسى وداود عليهم السلام كانوا يمتازون

بعظمة خاصة من بين هؤلاء الأنبياء، وأخص بالذكر إبراهيم الذي كانت أحداث سيرته تثير في القلوب عواطف الحب والرقة، وإن كفاح موسى من أجل تربية قومه ولجوءه إلى الله كطفل بريء كان يقدم لي منظرًا أخاذا لم أكن لأنصرف عنه. و لم يكن التياع داود لربه أقل إثارة، كان يبدو لي وكأن تيار الحب قد ساد كل ذرة من وجوده، وكأن روح الموسيقى كانت ترقص في كل لحن من ألحانه. لم تكن مزاميره المفيضة بالآلام تدلّ على أعماق حب الله فحسب بل كانت أغانيه الغرامية أيضا تكشف عن هيام محبوبٍ لم يكن قد ولد في هذا العالم، إلا أن أصحاب البصيرة من الناس كانوا يهيمون به حبًّا بعد أن رأوه ببصائر روحانية. لقد تراءت لي اللمحة نفسها في أقوال موسى أيضا، لكنني رأيت فيها فيلسوفًا يتكلم، كما لاحظت أن أنغام داود كانت تفيض بألحان الغرام ولوعة الحب، كان يبدو لي وكأن داود قد تاه بين النيِّرين (الشمس والقمر)، وكان يطغى عليه جلال الشمس مرة ويغلبه جمال القمر مرة أخرى، فتارة يشغف بقوة الشمس المضيئة وتارة كان يشتاق إلى قوة القمر المنيرة.

لقد فاضت روحي بالسعادة والسرور عندما اطلعت على أحوال أنبياء اليهود، وخِلْتُ أنني سأجد هناك ضالتي وعلاجًا لقلقي، فسألتهم ماذا ترون في أولياء الهندوس والبوذيين والزرادشتيين؟ وكانت دهشتي لا تعرف الحدود حينما سمعتهم يقولون لي: لا تنخدع بآراء هؤلاء،

إنهم ضالون كلهم، لأن الوحي لا ينـــزل إلا باللغة العبرية، وذلك لأن لسانَ الله عبريٌّ، ولسان أهل الجنة أيضا عبريٌّ والملائكة أيضا لا يتكلمون إلا بالعبرية. أما الناس الآخرون فيدّعون الوحي بالسنسكريتية والبراكرتية والبهلوية، مما يعني أن ادعاءهم باطل تمامًا. فاحتج بعض الناس قائلين: إن لسان الشيطان عندكم أيضا عبري، فإذا كان الشيطان يستطيع أن يوسوس في قلوب الناطقين بالسنسكريتية والبراكرتية والبهلوية فلماذا لم تستطع الملائكة إذن أن تلهمهم بالحسنات؟ وإذا كان هؤلاء أيضا خلق الله، فماذا فعل خالقهم من أجل هدايتهم؟ لكن اليهود لم يحفلوا بذلك، وقالوا: ليس كل ما خلقه الله على درجة واحدة، فنحن شعب الله المختار، ولا يمكن أن نكون نحن والأمم الأخرى سواء. ولدى سماعي هذا الكلام عاد قلبي يغوص في الأعماق، وبدا لي النور يتقلص شيئا فشيئا ويزحف الظلام ويسود. فتوجهت نحو المسيحيين بقلب يعتصره الحزن ويفيض بالألم، فسألتهم في عالم الخيال عن المسيح أيضا، وما قصّوه عليّ من أحداث حياته كان أليما بحيث جعل عيني تغرورقان بالدموع مرة بعد أخرى. فقلت لا شك أن هذا النبي كأمثاله في الأمم الأخرى يحتل مكانة مرموقة. إلا أنهم بدلا من أن يسروا بقولي هذا اغتاظوا وقالوا: لا تذكر لنا الأنبياء الآخرين لأنه لم يُبعث أحد في غير بني إسرائيل. أما أنبياء بني إسرائيل وإن كانوا مبعوثين من الله لكنهم كانوا خُطاةً كلهم، ولم يكن أحد

منهم مقدّسًا وطاهرًا من آدم إلى ملاخي بل إلى يحيى[٨١]، فلا براءة ولا قداسة إلا لابن الله وحده الذي تمثل بوجود المسيح. فتساءلت عن مصير سائر الأمم؟ فقالوا لا نجاة لها إلا بالإيمان بالمسيح. فقلت: إن المتأخرين عن المسيح يمكنهم النجاة بهذا الطريق، لكن ما هو مصير المتقدمين كـــ "كرشنا" و"رام تشندر" و"بوذا" و"زرادشت" الذين كانوا صورة متجسدة للحسنة والبر ورموزًا للتقوى والطهارة. فحركوا رؤوسهم بالنفي متأسفين وقالوا لا نجاة إلا لمن آمن بموت المسيح بلا خطيئة. فلما كان قوم المسيح هو آخر الأقوام فأصبحت كاسف البال لأن قوم المسيح كانوا آخر قوم لقيتهم، فتساءلت في نفسي: ما هذا الأمر العجيب يا إلهي؟ إنك خلقت الجمال في كل مكان لكن لا يسع شعبًا رؤية جمال شعب آخر، أليس هذا الجمال الذي أراه بجمال؟ أم زاغت أبصار الناس؟ بينما كنت أعاني هذا الاضطراب فإذا بنفس ذلك الصوت المحبوب، ذلك الصوت الكاشف للملمات والموجِّه نحو الصراط المستقيم، فقال ذلك الصوت: يا أمم العالم البلهاء: ما من أمة إلا خلا فيها نذير أو هاد[٨٢]. إن الله هو رب العالمين جميعًا وليس رب أمة مخصوصة. هو ليس بظلام للعبيد، ولا يعذب بغير تنبيه وإنذار، فكيف يمكن إذن أن ينـــزل عذابه بكل بلد

---

[81] انظر: إنجيل يوحنا ١٠: ٨

[82] انظر: فاطر: ٢٥، الرعد: ٨

دون أن يكون قد بُعث فيها رسول منه. وليس لله لسان بعينه، بل هو خالق الألسنة كلها، وينــزل وحيه بلسان الناس ولا يخاطب الناس إلا بلسانهم لكي يفهموا تعاليمه المنــزلة عليهم. إن أنبياء الله جميعًا كانوا أصفياء وأتقياء، ولكم فيهم أسوة حسنة، فمن يكفر بأيٍّ منهم يطرد من حضرة الله ﷻ، ومن يتبع آثارهم فهو مبارك ومهتد. فما أن سمعت روحي إلى هذا الصوت حتى خرت ساجدة أمام الله فقلت: اللهم يا مولاي الحبيب، لو لم يرتفع هذا الصوت من عندك لتحطمت، إنك وهبتني قوة لمعرفة الجمال الحقيقي.. يمكن للأعمى- الذي يجهل هذا الجمال- أن يظلّ غير متأثر بهذا الوضع الذي رأيته، أما أنا- الذي وهبتَه العينين- فلو لم أسمع هذا الصوت لجننت ولهمت على وجهي ممزقا ثيابي كالمجانين. لا أرى فرقا بين كرشنا ورام تشندر وبوذا وزرادشت وموسى وعيسى عليهم السلام. وكانت العقدة الكأداء بالنسبة إليَّ أنني كنت أرى الجمال ولا أجد الناس يرونه، ولكن أشكرك على منتك وإحسانك هذا إذ رفعت ذلك الصوت. لقد فاض قلبي حبًّا لصاحب ذلك الصوت حتى خلتُ أن صبري يوشك أن ينفد، فانطلقت من صدري زفرة أخرى فقلت: إن ذلك الصوت كان رحمة لأنبياء العالم كلهم، فبادرتُ مضطربا لأن أتمسك بأذيال صاحب ذلك الصوت، لكن ما لبثتُ أن اصطدمتُ دونَه بحجابٍ ثلاثة عشر قرنا، أي الماضي الجموح، والزمان الغابر الذي لا يطال. آه! يا أعزائي

كيف أكشف لكم عما جرى لي في ذلك الوقت. كانت حالي تماثل حال رجل يكاد يموت عطشًا فيقرّب إليه أحدٌ كأس الماء المعين، ثم إذا مس الكأسُ شفتَيه وشعر ببردِه منعَ عنه الكأس دون أن يصيب حلقَه شيءٌ من بلل الماء المعين، كنت أشعر وكأن صاحب ذلك الصوت على مقربة خطوات مني، وعلى بُعده الزمني لثلاثة عشر قرنا كنت أتلمّس أذياله دون أن أستطيع التمسك به، وعندئذ تمنيت لو ألقَى داود عليه السلام فأضمّه إلى صدري وأبكي بكاء مريرًا، فيشكو لي مستقبلَه وأشكو إليه ماضيّ، لأنه كان يشكو قائلا: لماذا ولدتُ قبل حبيبي العظيم بثلاثة عشر قرنا، أما أنا فأشكوا بأنني لماذا ولدتُ بعد حبيبي بثلاثة عشر قرنا؟!

رحمة للكتب السابقة

بعد إلقاء النظر على مؤسسي الديانات وكبار صلحائها توجهت ببصري تلقاء الكتب السابقة، وظننت أن هؤلاء الصلحاء ماتوا وخلوا ولم تعد أمام الناس مآثرهم وإنجازاتهم، ولعل الناس لم يقدروهم حق قدرهم لعادة تحاسدهم وتباغضهم، ولعل عامة الناس صدّقوا موقفَ كبار رجالاتهم مغمضي الأعين، لذلك فلنلقِ نظرة على الكتب التي تسمى بالكتب السماوية ونحاول تقييمها. فألقيت نظرة على الفيدا ووجدت فيها بعض الأفكار الرائعة، واكتشفت دررًا ولآلئ ألجأتني إلى

الاعتراف بأن الريشيين الذين جاؤوا بها إنما قدّموها بعد تلقّيها من الله تعالى.

لا شك أنني لم أستوعب منها أجزاء كثيرة إلا أنه كان مفهومًا لي دور الأيادي الإنسانية العابثة على مرّ العصور في تحريفها عن مواضعها. على أية حال، كان التيار العام للأفكار الواردة فيها يتسم بالطهارة والنقاء.

ثم نظرت إلى التعاليم التي جاء بها "غوتم بوذا" فوجدتها عمومًا مليئة بالروعة والجمال. إذا كانت تجليات حب الله تعالى تتراءى في الفيدا فكانت تعاليم "بوذا" تُري أصولا أخاذة للاتكال على الله والأخلاق الفاضلة. لا شك أنني كنت أرى في تعاليمهم أمورًا كثيرة مخالفة للعقل أيضا إلا أنه كان بوسعي إدراك أنها في أصلها نابعة من المنبع السماوي، ولا يمكن بحال أن يجود بمثلها العقل الإنساني، وإن كانت أيادي الناس طالتها مما أدت إلى حجب روعتها وطمس جمالها.

ثم توجهت إلى تعاليم "زرادشت" فلم أجد فيها التعاليم الأخلاقية السامية فحسب بل تراءى لي فيها بشكل واضح جانب التدبير متحركًا ونشطًا. كان "بوذا" يتحلى بروح الصوفية، أما زرادشت فكأنه يتسم بروح المعلم الذي ينظر إلى ضعف الطفل وتخاذله مقدما له تعليمات تفصيلية تمكنّه من إنجاز عمله بسهولة وعلى أحسن ما يرام. ولقد لاحظت فيها التركيز على المعاد أكثر مقارنة مع التعاليم الأخرى،

ورأيت فيها الروح العاملة التي تقول: لا تتخبطوا كثيرا في التفكير في سؤال: كيف كان خلقُكُم؟ بل ينبغي أن تهتموا أكثر بالتساؤل الآتي: إلى أين أنتم تذهبون؟ وما الذي ستتعرضون له في المستقبل؟ لقد وجدت هذه التعاليم مليئةً بفلسفة الجنة والجحيم وحقيقة عالم البرزخ والحساب وفلسفة التوبة والإثم وغيرها من الأفكار الهامة، وهذا يدل بداهة على أنها كانت منــــزلة من الله تعالى وإن كانت آثار تحريف الأيادي الإنسانية أيضا واضحة فيها. وأدركت أن زرادشت لم يكن مغنّيا ماهرًا يكشف عن أسرار الفطرة بل كان بمنــــزلة مزمارٍ وكان شخص آخر ينفخ به مُصْدرا لحنا بديعا.

ثم ألقيت نظرة على التوراة والكتب الأخرى معها فوجدتها مفعمة بأفكار تظهر جلال الله وتردّ على الشرك وترسخ التوحيد. لقد لاحظت في هذه الكتب تركيزًا خاصًّا على حكم الله تعالى على العباد وإرشاده لهم في مشاكلهم، واتضح لي بقراءتها أن الله تعالى لا يجلس منفصلا وبعيدا عن الناس بل هو ملك يراقب أعمال عباده اليومية فيعاقب الشرير وينعم على البار، ويعطي أوامره المتجددة المنبّهة على أخطائهم. لقد لاحظت في مجموعة الكتب هذه أمرًا جديدًا وهو أن اهتمام الكتب السابقة كان منصبًّا أكثر على التعليم وتغفل عن المعلّم، أما هذه المجموعة فكانت شخصية المعلمين بارزة فيها ولم يكن فيها الاهتمام بشخصية المعلم بأقل من التعليم، ولأجل ذلك لم يقتصر اهتمامها على ذكر معلم

أو معلمَين بل كانت هناك قائمة طويلة لهم وكانوا يمثلون أساتذة مستعدين في كل حين وآن لشرح المفاهيم الصحيحة للتعليم. كانت هذه الشريعة أيضا على شاكلة كتاب "زرادشت" شديدة الاهتمام بتفاصيل التعليم.

لقد كان تدخل الأيادي الإنسانية واضحًا فيها أيضا إلا أنني رأيت فيها لمعان الأنوار السماوية ساطعًا بحيث لا يتقاصر عن رؤيته إلا الأعمى.

ثم توجهت بأنظاري إلى الإنجيل، وإن كنتُ لا أستطيع اعتباره كتابًا لقلة ما تضمنه من أقوال المسيح وتعاليمه ولكثرة الحديث عن إنجازاته، مع كل ذلك كنت ألمح فيه بريق الروحانية. أما ما ورد فيه من تعاليم قليلة منسوبة إلى المسيح فكان رائعًا جدًّا وأخاذًا. لقد كان الاهتمام فيه بالمحبة والرحمة أكثر من العقاب والجزاء، وكان فيه اعتماد على إمداد السماء أكثر من التركيز على الكمال الذاتي للإنسان. لم يكن فيه الاهتمام بالتوكل التام على الله كتعليم "بوذا" إلا أنه كان يحتوي على التركيز على طلب عون الله تعالى في الملمات والبلايا. وكان يتضح جليًّا من هذا الكتاب أن المسيح لم يأت بشريعة جديدة، وكان ملهما من الله وإن خلا هذا الكتاب من إلهاماته المفصلة، أما ما ورد فيه كشيء من إلهاماته فكان لطيفًا وصافيًا ومُظهرًا عظمة الله تعالى، وإلقاء نظرة عابرة عليه تكشف كونه إلهامًا من الله. لقد أخذت نفسًا عميقًا ملؤه الفرح

والسرور، وقلت: كما أنَّ نور الله المجازي يظهر من كل شيء في هذا العالم المادي، فكذلك يترشح نوره الحقيقي من كل شيء في العالم الروحاني. وقلت: لقد خلا هؤلاء الأنبياء إلا أن كتبهم لا بد أن تجذب انتباه الناس بسبب جمالها الخلاب، ولا بد أن تكون مجموعة هذه الغرسات من البستان الروحاني قد أروت الغليل الروحاني للعالم وعالجت يأسه الأخلاقي، ولكني اندهشت لما رأيت أنه رغم وجود هذه اللآلئ الروحانية أمام الأعين، إلا أن كل واحد كان يثير ضجة بأنه يملك دررًا ثمينة وليس بحوزة غيره إلا أحجارٌ بلا قيمة. فقلت: ماذا دهى عميان العقول هؤلاء؟ لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها؟ هل انمحى العدل من العالم؟ وهل أبدى الإنسان روحانيته في زمن خلا، بينما أصبح الآن أجوف روحانيًا؟ هل العالم الذي كان فيما مضى يسمى بعرش الله قد تحول الآن إلى بؤرة للشيطان؟ وبينما كنت مستغرقًا في هذا التفكير، إذ تصاعد ذلك الصوت الجميل المطهِّر للقلوب والمنوِّر للعقول وقال: ليس منهجنا إعمار القصور على قبور الآخرين. الأعمى لا يسعه رؤية الجمال. لا شك أن يد الإنسان قد عبثت بالكتب السابقة فأحدثت فيها تغييرًا وتحريفًا، مع ذلك كان منبعها هو العلم الإلهي، وإن صوتنا مصدّق لها ويشهد على كونها من الله تعالى. لقد بعثنا الله تعالى– إضافة إلى الأهداف الأخرى– لهذا الغرض أيضا؛ أي أن نصدّق جميع كتب الله تعالى، ونثبت صدقها وننـــزّه الله تعالى من تهمة الظلم، وذلك

لئلا يتعرض أولئك الذين ينكرون الجمال للعمى الروحاني بعد رؤيتهم له. كيف يسع الإنسان الجاهل أن ينكر صدق هذه الكتب التي تحتوي على الغيب، والتي قد صادق الله تعالى على صدقها بذكره نبوءات مستقبلية فيها، ولاسيما نبوءات عن زمننا؟ ما من إنسان يعلم الغيب، أما هذه الكتب فتفيض بكنوز الغيب. ثم لاحظوا أيضا أنها رغم الشوائب والعوالق الحاصلة بيد الإنسان تُقدّم تعليم التوحيد على وجه الخصوص في حين أن كلام الشيطان لا يُقيم ملكوت الله تعالى. لقد انحلّت عقَد قلبي بسماع هذا الصوت، وتبدد قلقي، وخرجت من أعماقي زفرة طويلة وقلت: كان هذا الصوت رحمة للكتب السابقة أيضا.

رحمة للضمير الإنساني

لما رأيت أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وما من أمة إلا وحظيتْ بشموع الهدى التي تستطيع بواسطتها الوصول إلى نور الله الكامل، قلت: بغضّ النظر عن حسد الأمم وبغضها تجاه مؤسسي الديانات الأخرى وكتبِها، فقد تماثلت دياناتهم وحوت كتبهم السماوية تعاليمَ مشتركة، كما فاضت بتعاليم سامية أخرى، فلا بد أن هذا الأمر قد أسفر عن وضع أساسٍ لأمن العالم وسلامه؛ ولا بد أن الاتحاد في التعليم قد أنقذ العالم من الخصومات والتعارك وإن لم يعترف أتباع دين ما

بأنبياء الأديان الأخرى بسبب الغَيرة والأنانية. ولكن كانت دهشتي بلا حدود لما رأيتهم ينقضّون على بعضهم البعض لكما وضربا، ويذيقون بعضهم بعضا صنوف الآلام والتعذيب مطالبين إياهم بالتخلي عن معتقداتهم وقبول معتقداتهم هم بدلا عنها، لقد رأيت البعض منهم يتحمّل الشتائم والآخر الضرب، والثالث يلقى المقاطعة والرابع الضغوط الاجتماعية، والخامس يواجه الضغوط الاقتصادية، إذ لا يجد الوظيفة على الرغم من الكفاءة؛ لم يكن أحد يشتري منهم على الرغم من أن بضاعتهم كانت بجودة عالية. لقد جُرّوا إلى المحاكم دونما جريرة، وطُرد بعضهم من بلادهم، وهُدّد الآخرون بالسيف ما لم يتركوا دينهم. لقد لاحظت أن عقيدة المكرَه أحيانًا كانت أفضل مئات المرات من المكرِه الذي كانت أعماله أحيانًا قذرة وسيئة بينما كانت أعمال المكرَه طيبة وحسنة للغاية. أصابتني حيرة ودهشتة برؤية ما كان يدور حولي، ولاسيما عندما كان بعض الناس يجرؤون على توجيه السؤال التالي إلى المكرِهين الجبابرة: ما هذا الظلم؟ ولماذا يُعذَّب هؤلاء؟ فكانوا يردون عليهم: عليكم أنفسكم وأموركم ولا تتدخلوا فيما لا يعنيكم، أما نحن فننصف الناس ولا نظلمهم بل نحن لهم من الناصحين الحقيقيين، فلا ضير لو مارسنا عليهم بعض الضغوط، لأننا بهذا الطريق نخلّص أرواحهم. رأيت هذا الظلم يتفاقم ويتفاقم حتى أوذي بعضهم بجريرة دعواهم أنهم يستمعون إلى صوت ربهم، وبعضهم بتشبثهم بالتوحيد،

وبعضهم لأنهم لا ينسبون أي ظلم أو ضعف إلى الله تعالى. ورأيت الناس يمارسون على الآخرين الجبر والإكراه ممن يؤمنون باستحالة صدور الكذب من الله تعالى. آه! لقد كان هذا مشهدًا مرعبًا للغاية، اقشعر جلدي برؤيته، وقلت: ما الفائدة من بعثة هؤلاء الأنبياء؟ وما النفع من هذه الشرائع التي يستمر معها هذا النوع من الظلم. وبينما كنت مندهشا مما أراه أمامي حتى لفت انتباهي أناس يريدون أن يأتوا إلى معابدهم لعبادة ربهم وإذا بالآخرين يحولون دونهم قائلين: من سمح لكم بتدنيس هذه الأماكن المقدسة؟ ألا تخجلون من أنكم تريدون تدنيس معابدنا وأنتم تستخدمون الخمير بدلا من الفطير أو تتناولون الأشياء المقدسة غير لابسين القفازات؟

لقد صُدمت لما رأيت الناس يمنعون الآخرين من المعابد بناء على هذه الأمور التافهة، وكانت النتيجة أن الناس كانوا يبتعدون عن عبادة الله رويدا رويدا.

ثم رأيت بعضهم قد خطوا خطوة أخرى فهدموا معابد الآخرين حيثما سنحت لهم الفرصة، وعَدُّوا ذلك أكبرَ حسنة يثابون عليها، فكان اليهود يهدمون كنائس المسيحيين، والمسيحيون يحطّمون معابد اليهود، والبوذيون يدمرون معابد الهندوس والهندوس يطمسون معابد البوذيين. كانوا يتفاخرون بأعمالهم هذه حتى إنهم كانوا يظنون أنهم يكونون جديرين بمغفرة الله بقدر ما يهدمون معابد الأقوام الآخرين. آه! إن هذا الموقف

لجرح المشاعر المقدسة وإهانتها كان مخجلا حقًّا، وكان هذا المشهد مهولا للغاية. تساءلت: هل هذا هو الرقي الذي حققه العالم خلال آلاف السنين التي خلا نبي في كل قرن فيها تقريبا؟ هل هذا هو الارتقاء الذي يقدمه خبراء العلوم أمامنا؟ كدت أن أنكر نجاعة أعمال الأنبياء ومآثرهم ما لم يتصاعد ذلك الصوت المقدس الذي كان قد أزال شبهاتي من قبل، وما لم أره مهيمنًا ومسيطرًا على أصوات العالم كلها، وما لم أسمعه بكل جلال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[83] و﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[84]. لقد كشف الله تعالى عن كل أمر ضروري، فكما أنزل الماء المادي عند الحاجة إليه كذلك ظل ينـــزل الماء الروحاني في البلاد المختلفة بقدر الحاجة. إن اختلاف الناس ليس دليلا على عدم طهارة هذا الماء الطاهر وتقدسه بل إن دل على شيء فهو اختلاف طبائع الناس وحاجاتهم في المناطق المختلفة والأزمان المتباينة. والحق أنه كلما دعت الحاجة خلق الله أسباب الهداية بقدر ما كانت تلك الحاجة، فلا تظالموا جراء هذه الخلافات، ولا تمارسوا الإكراه على من تظنونه على الباطل والكفر البواح لأن الله تعالى يحاسب على ما في قلب الإنسان ولا يحاسب على ما جرى على اللسان. لن ينال اللهَ أقوالُكم وأعمالكم الظاهرة ولكن تناله حالتُكم القلبية التي لا يمكن أن تنشأ

---

[83] الإسراء: ٨٢

[84] البقرة : ٢٥٧

بممارسة الإكراه. لا يمنعْ بعضُكم بعضًا من العبادة في المعابد لأنه ظلم عظيم، فاسمحوا لمن يتوخى ذكر الله أيًّا كان طريقه، ليميل الناس إلى عبادة الله ولا يكثر الإلحاد. لا تهدموا دور عبادة الناس مهما بلغ بينكم الاختلاف، لأن ذلك سيؤصل الظلم والفتنة ويحول دون إرساء السلام مدة طويلة. ومن فعل ذلك دمّر اللهُ حُكمَه وخلفه أقوامًا آخرين يحفظون بأمر الله تعالى دور العبادة ويدافعون عنها.

لقد أزال هذا الصوت جميع مخاوفي، وأعانني على جمعِ شتات أفكاري مرة أخرى فتنفست الحرية التي كانت تتسم بالطمأنينة من ناحية، ومن ناحية أخرى يشوبها ألم ممضّ؛ وكانت الطمأنينة لأنني رأيت مطلعَ يومٍ لإصلاح العالم، ذلك اليوم الذي سيُمحى فيه الظلم، وكان الألم لأن قلبي أخذ يتوق إلى صاحب هذا الصوت وأخذ ينجذب إليه انجذابًا، ولكن كانت بيني وبينه ١٣ قرنًا لا يمكن تخطيها. على أية حال، خرجت من قلبي زفرة أخرى، وقلت بقلب ملؤه الشكر والامتنان: كان هذا الصوت رحمة للضمير الإنساني أيضا.

رحمة للمعاقين

ثم وقع بصري على المعاقين من الناس، ورأيت عددًا من الناس لا يصلحون لشيء ولا فائدة تُرجى منهم في الظاهر؛ منهم العميان والصمّ والبكم والعُرج والمعاقون والمشلولون، والضعفاء والمرضى والعجائز

والصغار والعاطلون عن الأعمال والمعوزون المعدمون ومن لا صديقَ لهم ولا أنيس. لاحظت أنهم خلقٌ يثيرون الانتباه. رأيت فيهم مَن مُلئت قلوبُهم شرورًا مع كونهم معاقين؛ فإذا كان أحدهم مقطوع اليدين فيحاول السرقة بقدميه، وإذا كان مبتور الرجلين فيحاول حبوًا الوصول إلى مكان السيئة، وإذا كان فاقد البصر فيحاول ارتكاب السيئة بأذنيه من خلال سماعه المحرّم، أو يحاول إشباع رغائب أفكاره السيئة لمسًا بيديه؛ هذا ورأيت على وجوه من لا صديق لهم ولا أنيس آثار التكبر أكثر من الملوك الكبار، ووجدتُ المعوزين منهم- على رغم حالتهم هذه- يحاولون إسقاط الآخرين. ولكن رأيت بينهم أيضا من كانت قلوبهم مفعمة بنور الله تعالى؛ ما كانت لهم أعين إلا أنهم كانوا يملكون بصرًا حادًّا أكثر من المبصرين، ما كانت لهم آذان إلا أنهم كانوا يملكون سمعًا أرهف من السامعين، ما كانت لهم الأيادي إلا أنهم كلما تمسكوا بحسنة ما تخلوا عنها، ما كانت لهم الأقدام إلا أنهم كانوا أسبق من الخيول العادِيَة في سبل البر والخير. لم يكن بوسعهم رغم محاولاتهم وفق النيّات الطيبة والأسباب المتاحة القيام بأعمال يقدر عليها السالمون المتمتعون بالأعضاء والقوى، ونظرًا إلى وضعهم هذا كانوا في أعين أهل الظاهر ممن لا يرجى منهم خير ولا يصلحون لأي عمل، إلا أنني رأيتهم لا يحزنون على فقدان الأيادي بقدر حزنهم على عدم قدرتهم على إنجاز أعمال لا تُنجَز إلا باستخدام الأيادي. وما يصيبهم غمّ على فقدان

بصرهم بقدر غمّهم على حرمانهم من الأعمال الصالحة التي تعمل فيها الأعين دورًا أساسيًا. على أية حال، لم يكونوا يأسون على ضعف يعانونه وإنما كانت قلوبهم تعتصر ألما وأسًى بالغًا على ما يسفر عنه ذلك الضعف من حرمانهم من الحسنات وأعمال البر والصلاح. لقد وجدت فيهم جمالا رائعًا على الرغم من التشوهات والدمامة الظاهرة، ورأيتهم كاملين رغم شتى العيوب الخلقية فيهم، فقلت بكل حماس: لن يخالفني أحد رأيا ولو اختلفت الأديان في أنهم مخلوق إلهي رائع وجميل حتى إن ألوفًا من الكمالات تقدّم فداء لعيوبهم الخلقية، وإن وجودهم يثبت أنه إذا أنعم الله تعالى بفضله فيمكن أن ينبت من أكوام القمامات ورد طيب. ولكن كانت حيرتي بلا حدود لما انبرتْ جماعة لمعارضي هذا التفكير؛ فقال بعضهم: هل تعدّ هؤلاء الأنجاس أطهارًا وقد أُمرنا بالابتعاد عنهم؟ لا يجوز الأكل معهم، ولا يحسن لمسهم أيضا.

وقالت جماعة أخرى: إنهم بوضعهم الحالي يقضون فترة العقوبة على أعمالٍ اقترفوها في زمن خلا، فأنى لهؤلاء أن يكونوا أحباء الله؟

لم يقتصروا على هذا فحسب بل أحصوا عليهم ذنوبهم فقالوا بأنهم ارتكبوا كذا وكذا من الآثام فضاعت أبصارهم واقترفوا كذا وكذا من الخطايا ففقدوا أسماعهم، وهكذا دواليك.

وقال بعضهم ضاحكًا: هذه الأقوال تنم عن الجهل، والحقيقة أنه قد ركبتهم الأشباح والجن، وكانت آلهتنا تُخرج مثل هذه الأرواح

الشريرة ثم عمل على ذلك تلامذتها، ولكن الآن لم يعد فينا أناس أكفاء لهذا العمل.

قلت: ما الذي حلّ بالعالم؟ إن عميان القلوب يضحكون على مكفوفي البصر، وصمّ القلوب يضحكون على صمّ الآذان. يا إلهي، ما أدرى هؤلاء- الدميمو الشكل كريهو المنظر- جمالَ المعاقين الذين تتنور قلوبهم بنورك، وتتحول صدورهم المليئة بأزاهير محبتك فتعمر بغبطة توازي مئات البساتين الغناء. آه! كيف يمكن أن أقبل أنك أيضا تنظر كالمرابين إلى أكياس الناس لمعرفة ما فيها ولا ترى ما بداخل قلوبهم؟! وبينما كانت هذه الأفكار تغزو ذهني إذ قطع تيارَ أفكاري مرة أخرى ذلك الصوت الأخاذ حلّالُ العُقَد، فقد ارتفع ذلك الصوت بكل فخر وروعة ووقار لم يحظَ به أي محبوب، وبعظمة خارقة لم يظفر بها أي ملك من ملوك العالم في أحلامه أيضا، فقال ذلك الصوت: يا أيها العمّال! يا من تفدون بحياتكم في سبيل الله! لا تظنّوا أنكم المقبولون في حضرة الله وأنتم الورثة لأفضال الله ونِعَمِه، بل اعلموا أن لكم إخوةً ما قطعتم واديًا من هذه الأعمال ولا سرتم مسيرًا صعبًا إلا كانوا معكم، وكانوا شركاءكم، وكان لهم نصيب من ثوابكم[85]. لقد فاز هؤلاء أيضا بقرب الله كما فزتم به.

---

85 انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر.

لاحظت بعد ذلك أنه قد حدثت ضجة عظيمة في وادي الأبرار والصالحين وأخذ الجميع يصرخون: لماذا حدث هذا؟

فأجابهم هذا الصوت المقدس: صحيح أن أياديهم وأقدامهم لا تسمح لهم أن يشاركوكم في أعمالكم ولكن قلوبهم معكم؛ فعندما ترتشفون أكوابًا مترعة من شراب اللذة والمتعة للعمل يتجرع هؤلاء عندها كؤوسًا مريرة من الأسى والحرمان. ومع أن الكؤوسَ مختلفةٌ، والخمرُ الموجودة فيها مختلفةٌ أيضا، إلا أنها لا تختلف كيفًا ونشوةً؛ فما تصلون إليه مشيًا على أقدامكم يطير إليه هؤلاء بأجنحة قلوبهم، فلا تقولوا إنهم نجس، لأن الأبرار والصلحاء منهم لا يقلون عنكم طهارةً.

ما أن سمعت هذا إلا وطرأت على روحي حالةٌ من الوجد، وأخذ قلبي يرقص فرحة وسرورًا فقلت: صدقت يا رسول الله، هذا هو العدل بعينه، وهنا خرجت من قلبي زفرة أخرى وقلت: يقف الجميع إلى جانب القوي، إلا أن هذا الصوت كان رحمة للمعاقين أيضا.

رحمة للأجيال القادمة

ماذا عساي أن أحكي مجددا؟! فقد زرت في عالم الخيال عشرات الأماكن الأخرى أيضا، ولكن لا يتسع المقام في هذا المقال، لذلك أنهيه الآن بعد ذكر مشهد أخير.

لقد خطر ببالي أن هذا الصوت كان رحمة للماضي والحاضر أيضا، ولكن ما الحال مع المستقبل؟ وقلت بأن الأجيال القادمة ليست بأقل حبا لدى الناس من أنفسهم، فنرى الوالدين مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل إنقاذ حياة أولادهم، بل الحق أنهم كل يوم يعرّضون أنفسَهم للدمار والأضرار من أجلهم، فأنَّى للماضي والحاضر أن يكونا مصدر طمأنينة لأحد ما دام يرى مستقبله في الظلام؟ وأنى له أن يرتاح ما دامت أجياله القادمة قد حُرمتْ من سلوك مسالك الفوز والفلاح والنجاح؟ قلت: لا يمكن أن يحدث هذا لكونه يخالف الفطرة الإنسانية، فلا يرضى أحد بدمار أجياله القادمة، فلا بد أن تتحد كلمة الأديان بخصوص المستقبل، ولن يكون لها أي خلاف في هذا الأمر مع هذا الكيان المقدس الذي كان يخالفها في أمور أخرى وكان يقدم لها العقيدة الصحيحة والعمل السليم. فسألت زعماء الهندوس في عالم الخيال: ما هي الوعود التي تجدونها للأجيال القادمة. فقالوا: الفيدا كتاب أول وأخير ولا كتاب بعده.

قلت: لا أسئلكم عن كتاب بل سؤالي هو: هل هناك إمكانية للأجيال القادمة أن ترى ما رآه الأولون؟ صحيح أن الفيدا لن ينـــزل مرة أخرى ولكن هل سيرى الناس مرة أخرى العجائب التي أراها الفيدا للأولين فيجدّدون إيمانهم؟ أم ليس لهم حظّ منها؟ فقالوا: مع الأسف! لن يحدث ذلك، وأنى للعالم أن يجد عصرًا مثل عصر الفيدا؟! فسألت

البوذيين، غير أنهم أيضا لم يعطوني أي أمل بهذا الخصوص. لم يقدم الزرادشتيون أيضا لأجيالهم وعدًا بحلول عصر جميل. وادّعى اليهود بأنه استمر نزول كلام الله تعالى إلى زمن زكريا وظلت معجزاته تجدّد إيمانَ الناس إلى تلك الحقبة، ولكن هذا لم يعد يحدث الآن. وزعم المسيحيون أن روح القدس كان ينـــزل إلى زمن الحواريين إلا أنه ترك ذلك الآن. فسألتهم: فماذا عن الأجيال القادمة؟ هل ستظل محرومة من هذا الخير؟ أليس لهم ما يجدّدون به إيمانهم؟ فقالوا: يا للأسف! لن يحدث لهم شيء كهذا. كنت متحيرًا، إذ كيف رضي الناس بحرمان أولادهم من كلام الله؟ ولماذا لم يتضرعوا أمام الله قائلين: يا من رزقتَنا حب الأولاد، هبْ لنا وعودًا لخلق أسباب رقيهم أيضا. لقد لاحظت أنهم لم يكونوا يشعرون بخطورة الموقف، كأنهم كانوا يعدون كلام الله لعنةً- والعياذ بالله- وبالتالي يشكرون الله فرحين على نجاة أولادهم وأجيالهم منها.

تنحيت عن هؤلاء جانبًا بقلب مكلوم ونفس حزينة وقلت: ليس نورًا ما انطفأ ضياؤه، وليس إلهًا إن اقتصرت تجلياته على الماضي وانتهت. وبينما كنت كذلك إذا أنا بذلك الصوت الجميل الأخاذ الذي طالما ارتفع، وسمعته يقول بطريقة تأخذ بمجامع الفؤاد: لم نجعل النعمة التي نعِمنا بها مقتصرة على أنفسنا بل وزعناها على بني البشر للأبد. لا تقتصر نعم الله تعالى على الماضي، لأنه رب المستقبل أيضا كما أنه رب الماضي، وسينـــزل كلام الله تعالى على من يرتبط به بعلاقة صادقة

وستظهر له آياته، فحبّه ليس بالشيء المحدود حتى يقال بأنه وزعه على الناس في الماضي فنفد، كلا، بل هو كنـــز لا حدود له، وسيأخذ الناس نصيبهم منه على قدر مراتبهم في جميع العصور. كل من قال بقلب صادق إن الله ربي ثم استقام وثبت على هذه العلاقة كالعشاق الصادقين تتنـــزل عليه ملائكة الله حاملة له رسائل ربّه، وسيلقون في أذنه أحاديثه الفياضة بالمحبة وستقف إلى جانبه في الأتراح والأحزان مبشرة له بأن الله تعالى له ولي وهو له نصير، فلا خوف عليه ولن يحزن مطلقًا[86]. فسيظل باب وحي الله تعالى مفتوحًا على الدوام لمثل هؤلاء الناس، ولن يُردَّ حبُّهم، بل يُقبل منهم، وسينالون جميع الدرجات التي نالها الأولون.

ما أن سمعت هذه البشرى حتى قلت بعفوية عارمة: الله أكبر! كان ذلك الصوت رحمة للأجيال القادمة أيضا.

لو سُدّ باب النعم السماوية في وجه الأجيال القادمة لاستحالت حياة عشاق الله تعالى موتًا بغيضًا، فمن تتقد في قلوبهم جذوة العشق الإلهي لا يحبّون الجنة إلا لأنهم سينالون فيها قرب محبوبهم الأزلي، وإلا فلن تستهويهم فواكه الجنة من الرمان ولا العنب وغيرهما. وعليه فلو قُدّر لهم الحرمان من قرب الله تعالى كما قال أتباع الأديان المختلفة لكان موتهم وحياتهم سِيَّيْنِ بالنسبة إليهم. فمباركٌ من لم يحرم الأجيال القادمة أيضا

---

[86] انظر: فصلت: ٣١

من الأمل، وبتبشيره العشاقَ بلقاء محبوبهم قد جعلهم يدعون له على الدوام.

وهنا خرجت من أعماق قلبي زفرة ألمٍ وحسرةٍ، وقلت: هل من سبيل لاجتياز فترة ١٣ قرنا من الزمان التي بدا اجتيازها صعبًا لكون الماضي قد ختم عليها؟ هل حال بيني وبين محبوبي سدٌّ كسد ذي القرنين بحيث استحال نقبه؟ ألا يمكن لبريق الأمل أن يخرق غياهب هذا اليأس؟

بينما كنت في هذه الحالة من الكرب الشديد إذ سمعت صوتا آخر قريبًا إلى درجة أني ما قدرتُ سبر أغوار قربه إليّ لكونه أقرب إليّ من حبل الوريد، فقال لي: لا تحزن، وانظر إليّ، فما تراه ماضيًا لك فإنه الحاضر بالنسبة إلي. لا شك أن الإنسان الضعيف كان ولا يزال يرى الوصول إلى الماضي محالا ولكن الماضي والمستقبل بالنسبة لي سيّان، فالشخصية التي تريد رؤيتها قد استحال ماضيها مستقبلا، فارجعْ إليّ مستقيمًا، فستراه في قربي وفي جناتي العليا مُقسمًا نعمي على مشارف الكوثر على الشاكلة التي دأب عليها على مدى ١٣ قرنا منصرمة. لقد وجده أهل الدنيا مقسمًا جميع أنواع النعم، فكيف لا يكون رحمة للعالمين من خلقته لإنجاز مهمة التوزيع والتقسيم ولأجل ذلك سمي بأبي القاسم؟ وللسبب نفسه مُنع الناس من أن يكنّوا بكنيته.[٨٧]

---

[87] انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب كنية النبي ﷺ.

قلت: نفسي فداء جمالك الأزلي يا من يتكلم في قلبي، لا شك أن حبيـــبي محمدًا ﷺ كان رحمة للعالمين، ولكن نفسي فداء رحمتك يا رب العالمين، فإنه ليس بوسع أحد إرجاع دقيقة واحدة من الماضي، أما أنتَ فقد حولت ١٣ قرنا ماضية إلى المستقبل، وأعطيتَنا وعدًا للقاء بما تركناه خلفنا حسب ظنّنا. فيا محبوب حبيـــبي محمد ﷺ تعال واسكن في جِذر قلبي، يعلو جمالك فوق كل جمال، وتنفرد بعظمتك، قلت ذلك وانحدرت دمعة من عيني، وما أن نزلت على خدي حتى أقبلت عليَّ إحدى زوجاتي في الغرفة، فسارعتُ إلى مسحها خوفًا من أن ينكشف سرّ حبّي، وإلا فلا أدري كم من دمعة ستتبع أثرها.

(جريدة الفضل، عدد ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٣)



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

الأسوة الكاملة

خطاب المصلح الموعود رضي الله عنه

الذي ألقاه في ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٣٣م

في جلسة سيرة النبي ﷺ في قاديان



أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

شكوى

قبل أن أبدأ بالموضوع الرئيس، أقول شيئاً عن الشكوى المكتوبة التي رُفعت إليّ من بعض الهندوس وعليها تواقيعهم بأنه قد مرّت من أزقتهم مسيرة[88] غير معهودة، وكانت تصرفات بعض الطلاب المشاركين فيها غير لائقة. فقبل أن أتحرى عن هذه الأمور غير اللائقة التي لوحظت في تصرفاتهم -والتي إن أطلعوني عليها لاحقًا فسأتخذ إجراءات بحسب نوعية كل تصرف غير لائق- أسدي نصيحة عامة وهي: إذا تصرف أحد تصرفًا غير لائق فإنه عمل مشين. لقد حدّدنا هذا اليوم لنستعد لوضع أساس أو قاعدة للأمن والتصالح بين الأقوام المختلفة. فإن هذا اليوم الذي نريد أن نجعله أساسًا للأمن والسلام بين الأقوام المختلفة والذي- رويدًا رويدًا- نريد أن نجعله يومًا لذكر زعماء كل الأديان بخير، وذلك لكي يتلاشى الجفاء بين أتباع الأديان المختلفة وبالتالي تزداد المحبة والوئام بينهم، فإن التسبب في ألم أحدٍ أو جرح مشاعره أمر غير لائق البتة في مثل هذا اليوم خاصة، وإن كان المسلم مأمورًا عمومًا بحسب التعاليم الإسلامية بعدم إيذاء أحدٍ. فلا بد للجميع من مراعاة هذا الأمر في مثل هذا اليوم والامتناع عن كل ما يسبب الإيذاء والألم للآخرين.

---

[88] وهي مسيرة المسلمين المشتركين في جلسة سيرة النبي ﷺ. (المترجم)

أضرار تحديد الحدود المصطنعة

أما ما يتعلق بالشكوى المتعلقة بمرور المسيرة من أزقتهم بصورة غير معهودة فأبدي رأيي تجاهه وهو أنه ينبغي أن تتخلى الآن جميع الأقوام عن ضيق الصدر وقِصَرِ النظر. وأرى أنه لن تنشأ في قلوبنا دوافع للتقارب مع الطرف الآخر ما لم ينتهِ تمييز الفئات بتسمية الأماكن باسمها، كسوق الهندوس، وسوق المسلمين، وحي الهندوس وحي المسلمين. وبسبب هذه الحدود المصطنعة ستظل في القلوب تلك العُقَد التي تحول دون التقارب بين بعضنا، لأن الذي يجرح القلوب سيئ، سواء أكان في حي الهندوس أم في حي المسلمين. إذا كان الهندوس يكيلون في حيّهم الشتائم للمسلمين، أو المسلمون يسيئون في حيّهم إلى الهندوس، فلا شك أن عدم سماع تلك الشتائم سيؤدي إلى عدم الثورة من الطرف الآخر، لذا لن ينتشر الفساد في الظاهر، ولكن الفساد الحقيقي هو فساد القلب؛ فلو كال كل طرفٍ الشتائم للطرف الآخر سواء كان في منطقتهم أو في بيوتهم بعد غلق الأبواب أو بالمهامسة أو شتم الآخرين في قلبه، فإنّ كل ذلك فعل قبيح جدًّا، لأن قلب الشاتم فاسد ولا يمكن أن يقوم في مثلِه أساسُ المحبة. فلو راعى كل واحد صلاح قلبه فلا يبقى فرق بين شتم الناس في الظاهر أو الباطن أو في حيّه أو في حيّ غيره، وإذا حرص كل واحد على عدم جرح مشاعر الآخر فلا ضير في أن تمر المسيرة الهندوسية من حَيِّنا، ولا أرى وجهًا للاعتراض

إذا مرّت مسيرتنا من حيّ الهندوس دون جرح مشاعرهم، ولا حرج في ذلك أبدا.

السبب الحقيقي للفساد في الهند

هذا هو رأيي، ولكن إذا اعترض أحد لعدم تولُّد رحابة الصدر في القلوب فالأفضل له ترك حيّه، ولكنني أرى أنه لا بدّ لنا من التخلي عن ضيق الصدر المذكور، وينبغي ألا نقيم حدودًا لم يحدّدها ديننا، فمثلا لم يحدد أي دين أن هذا الحي حي الهندوس وذلك حي المسلمين. إن منشأ جميع الخصومات الدينية في الهند هو هذه العقلية الضيقة التي طالما عارضتُها.

رحابة صدر الأحمديين

تمر من تحت مسجدنا الصغير مواكب الزواج للهندوس والمسلمين والسيخ وهي تعجّ بالمزامير، وأحيانًا تمرّ عندما أقيم الصلاة إلا أننا لم نسدّ عليهم الطريق قط، بل منعت بعض الذين كانوا يريدون إعاقة سبيل مثل هذه المواكب. إذا كان أحد يستطيع بمزمار أو قيثار تشتيت تركيزنا فهذا يعني أنه لا تركيز لنا على الدين. ينبغي أن نكون مستغرقين في ديننا بحيث لا يمكن لشيءٍ أن يشغلنا عنه. لم أشعر بمرور تلك المواكب، بل إذا شكا لي أحد قلت له بأن هذا الزقاق يمرّ به الجميع، لأجل ذلك تمرّ منه مواكب الهندوس والسيخ والمسلمين، بعضها تكون من هنا وبعضها تأتي من

الخارج. أرى أن الطريق الأمثل للتصالح هو عدّ الأمور غير اللائقة سيئة سواء كانت في حي الهندوس أم المسلمين. ولكن إذا أراد أحد أن يأتي بأمر سيئ في حي الآخرين بنية الفساد فإنه أسوأ عمل يقوم به. ولكن السيئ سيئٌ وينبغي الكفُّ عنه في حيّه أيضا.

النصيحة للجماعة

لأجل ذلك أقول قبل إجراء التحقيق في هذا الأمر إنه إذا ارتكب أحد مثل هذا الفعل المذكور فعليه أن يتوب، وإن لم يرتكب ذلك فعليه أن يحتاط مستقبلا. إذا كان بعض الناس لا يحبون أن تمرّوا من زقاقهم فلا تمرّوا من هناك. ولكن لا بد أن أقول أن هذا الموقف لا يؤدي إلى التصالح بل يوقع الفساد في كل شعب وفي كل مكان، وإن مثل هذه الأمور تؤدي عمومًا إلى نشر الفساد بين الهندوس والمسلمين وبين المسيحيين والهندوس في منطقة "مدراس". ومن الخطأ القول إنه لو مرّ أحد من حيّنا أو من مسجدنا فإنه يسيء إلينا. إذا كان هذا الشخص أخًا لنا فكيف يُعَدّ مروره من هنا إساءة إلينا؟ مع كل ذلك، إذا كان البعض يتأذون فلا حرج في ترك المرور من أزقتهم ما لم تتغير قلوبهم.

سعة الموضوع وضيق الوقت

أتحدث الآن عن الغرض الذي عقد الاجتماع لأجله. لا يسعني ذكر أحداث مفصلة من حياة النبي الكريم ﷺ لأن الوقت ضيق. إنها أيام

الشتاء وليس بين صلاتي الظهر والعصر سوى ساعة أو ساعة ونصف، يُستغرَق بعضه في المجيء إلى هنا ثم في التلاوة والقصيدة، ثم بعضه في الوقوف أمامكم وفي التمهيد ولا يبقى للموضوع الأساس إلا ١٥ أو ٢٠ دقيقة، فمن يقدر خلال هذا الوقت القصير على عبور البحر الذي لا تُرى شواطئه؟ لا يسعني سوى ذكر بعض أعمال النبي ﷺ حتى يزداد المؤمنون به معرفة به وحبًّا له ويزول بها النفور من قلوب الأغيار.

الهدف الحقيقي من الأديان

سأذكر شيئا عن هذا الموضوع اليوم وهو أن ديانات العالم كلها تجعل الوصال الإلهي هدفَها الحقيقي، فكلٌّ من الديانة الهندوسية والإسلامية والسيخية والمسيحية والزرادشتية واليهودية والمجوسية تخبر أن الهدف الحقيقي منها هو الوصول إلى الله تعالى. ولكنها تخبرنا أن هذا الوصول لا يتأتى إلا بعد الموت. مثلا يعتقد أتباع ديانة "سناتن" أن الإنسان الكامل بعد وفاته يتفانى في الله تعالى. يقول الآريا أن مثل هذا الشخص يصبح مقربًا لله تعالى لأمد بعيد، وهو معتقد البوذيين أيضا. أما اليهود فبعضهم لا يؤمنون بالآخرة، أما المؤمنون بها فيعتقدون بالأمر نفسه، وهو معتقد الزرادشتيين والمسلمين بل هو ما يعتقد به الجميع، والجميع ذكروا أنَّ وقت هذا الوصال هو بعد الموت، وكما أن الإنسان يتخذ بعض الأسباب والزاد من أجل سفره كذلك ينبغي أن يتخذ بعض

الأسباب للوصال الإلهي في هذه الدنيا التي هي بمنـــزلة السفر للإنسان، وما أجمعت عليه جميع الأديان هو أنه ينبغي أن يجذب الإنسان تجلي صفات الله تعالى حين بلوغه مرتبة القرب الحقيقي المذكور، لأن جذبه تجلي صفات الله أيضا هو نوع من هذا القرب. على سبيل المثال ما هو الصوم؟ هو أن يمتنع المرء عن الأكل وغيره لفترة معينة لوجه الله، ثم ما هي الصلاة؟ معنى الصلاة أنه كما أن الله تعالى بلا شريك وصاحب وقريب له كذلك ينبغي أن ينفرد المرء عن أقاربه وأصحابه لوقت معين. إضافة إلى ذلك هناك عبادات أخرى في الأديان المختلفة، وتتفق الأديان جميعًا على أن الهدف الحقيقي من الحياة البشرية هو نيل القرب الإلهي في الآخرة، ومثاله في الدنيا خلق تجل لصفات الله تعالى في القلب، والإنسان الكامل هو أكثر الناس تصبغًا بصفات الله تعالى.

المظهر التام للصفات الإلهية

أتناول في خطابي اليوم هذا الأمر وأخبركم أنكم لن تجدوا مثيلًا للنبي ﷺ في التصبغ بصفات الله تعالى وجذبها، ولأجل ذلك استهللت خطابي هذا بسورة الفاتحة.

صفة الربوبية

لقد ذُكِرتْ في الفاتحة أربعُ صفات لله تعالى وأولها: رب العالمين. إن ربوبية الله تعالى تعمل عملها في كل مكان. إن الأرض والسماء

والشمس والقمر والنجوم، أهل الشرق والغرب، البيض والسود، الآسيويين والأوروبيين كلهم تحت ربوبية الله تعالى، وإنه يربي الجميع سواء كانوا صغارًا أو كبارًا، فقراء كانوا أو أغنياء.

صفة الرحمانية

الصفة الثانية هي "الرحمن"، ومعناها أن الله تعالى يهيئ أسبابًا خارجية من أجل تفعيل جدوى القوى التي يتحلى بها الإنسان، الأمر الذي لا تفعله الحكومات الدنيوية؛ لنأخذ الجامعة مثلا، فإنها تهيئ أسبابًا للدراسة والتعليم ولكنها لا تكفل الوظيفة بعدها، بل يقول أهلها بأننا قمنا بتعليمكم، والآن عليكم البحث عن الوظيفة المناسبة لكم. فإن الجامعة تعطي التعليم ولا تهيئ وسائل لاستخدامه، ولكن الله تعالى "الرحمن"، أي أنه يهيئ ذرائع للقوى التي وهبها للناس.

شرح لطيف للرحمانية

لقد خلق الله تعالى وسيلة لاستخدام كل شيء خلقه. مثلا، خلق الله العين، ولأنها بحاجة إلى ضوء للرؤية، فقد سبق أن خلق الله تعالى الشمس. ثم من الضروري أن ترى العين أشياء جميلة لتزداد نضارة فخلق الله تعالى المشاهد الجميلة والخضرة وأجمل الناس والحيوانات والطيور، والأشجار والأزهار والنباتات وغيرها. وكذلك خلق الله تعالى الأذن، ولكنه لم يقل أن تخلقوا الأصوات بأنفسكم بل خلق الأصوات

أيضا. ثم هناك فروق شاسعة بين صوت وصوت، فلو كان صوت الجميع واحد لكان من الصعب التمييز بين الأصوات. ولكن الله تعالى خلقها بفروق دقيقة جدًّا بحيث يندهش الإنسان لدى معرفته ذلك. يفرّق الإنسان بسهولة بين ضجيج القطار وصهيل الحصان، كذلك يختلف صوت كل واحد عن الآخر بفرق ما. فلو نظرنا إلى هذه الفروق وأنواع الأصوات لوجدنا مئات الآلاف من الأعمال للآذان.

ثم هناك حاسة اللمس التي خلقها الله تعالى ولكنه لم يأمرنا بالبحث عن الأعمال التي نستخدمها فيها، بل خلق الأشياء ولِكُلٍّ ملمسُه، منها أشياء لينة وأخرى صلبة وبعضها أملس والآخر خشن، ثم هناك أنواع كثيرة لكل شيء منها. هناك آلاف الدرجات والفروق بين الأشياء اللينة. نلمس الحرير ونلمس المطاط أيضا، وعلى ليونتهما فإننا نشعر بفروق واضحة بينهما عند اللمس، إذًا هناك آلاف الأنواع والفروق بين الأشياء اللينة أيضا. وعليه فما وهبته صفة رحمانية الله تعالى للإنسان من قوى خلقتْ معها وسائل لاستخدامها أيضا، ولكن الحكومات الدنيوية لا تفعل ذلك.

مثال طريف

أضرب لكم على ذلك المثال التالي: يقال إن شخصًا ذهب للصيد واصطاد أرنبًا، فلما اقترب من بيته خطر بباله أن عائلته كبيرة وإذا أخذه

إلى بيته فسيتخاصم أهله عليه فالأفضل أن يعطيه لشخص آخر. وبينما هو كذلك إذ مرّ من قربه ناسك، ففكّر في إعطائه هذا الأرنب فسأله: أيها الناسك هل تريد أن تأكل أرنباً؟ وهنا خطر بباله قبل أن يجيبه الناسك: صحيح أن الأطفال سيتخاصمون على لحم الأرنب بعد طبخه، ولكن ماذا عساي أن أردّ عليهم إذا رجعت البيت خالي اليدين؟ لذلك من الأفضل أن أذهب به إلى بيتي، ولكن خلال ذلك أجابه الناسك: نعم آكله إذا وجدتُه. فقال هذا الشخص: إذًا، اصطده وكُله. هذا هو مثال الدنيا، إذ إنها تولّد لديك آمالا كبيرة ثم تتركك في حيرة من أمرك، وينطبق على هذه الحالة القول السابق: اصطده وكُله. وإن الشباب الذين تعلّمهم الحكومة ثم لا توفر لهم الوظائف يقولون على حدّ قول أحد الشعراء ما معناه:

لماذا أسأتم إلي بهذا القدر بعد دراستي إلى درجة الماجستير؟

فالنتيجة لهذا الوضع هي أن هؤلاء الدارسين الذين لم توفر لهم الحكومة وظائف تُذكر، ينقلبون عليها ويتربصون بها.

النبي الكريم ﷺ وصفة رب العالمين

إن الصفة الأولى المذكورة في هذه السورة *(الفاتحة)* هي صفة رب العالمين. والإنسان الكامل هو من يتخلق بصفة ربّ العالمين. ولنمعن النظر في حياة النبي ﷺ ولنَرَ هل أخذ كل شيء في هذا العالم في

الحسبان؟ وهل عمل لنفعه؟ فإن كان قد أخذ كل شيء في الحسبان وعمل لنفعه فإنه الإنسان الكامل، ولكنه إن لم يفعل ذلك وقصرت عينه عن بعض الأجزاء التي لم يعمل من أجلها شيئًا فلا يمكن أن يقال أنه تصبّغ بصبغة رب العالمين. لا بدّ أن نأخذ شيئًا مثالاً للبحث في هذا الأمر، ولما كنّا نتحدث عن النسل الإنساني لذلك نأخذ الإنسان الشاب مثلا- وهو من يعدّه كل قوم رجلا جعله الله تعالى بذرة لذرية المستقبل- ونتساءل ماذا تكون الأمنية الأولى لمثل هذا الشاب؟ يثبت من الكتاب المقدس وهو ما يقوله العقل أيضا أن من يسكن إليه لا بد أن يكون فردًا من جنسه، ولا يمكن أن يشبع رغبته جمال الدنيا أو أي شيء آخر ما لم يكن له زوج من جنسه.

ربوبية الشباب

إن الشهوات تغلب العقل في الشباب فتأمره بالقفز في بحر الشهوات دون الاكتراث بالعذاب. ولنرَ الآن هل قام النبي الكريم ﷺ بربوبية الإنسان في هذه الحالة؟ وعندما نمعن النظر في هذا الأمر نعلم أنه قام بربوبيته نظرًا إلى ثورة شبابه، فقال: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك[٨٩]. أي نصيحتي لكم أن تنكحوا التي تكون موجبة للرقي الأخروي. وذلك لأنكم إذا

[89] البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين

تزوجتم بها لجمالها فستتمحور أعمال حياتكم كلها حول جمالها فحسب، أما الذي يتزوج بامرأة من عائلة كبيرة سيضع نصب عينه طول عمره أن يجعل نفسه أيضا ذا حسب ونسب، ومن يتزوج بامرأة من عائلة محترمة فسيبذل قصارى جهده لينسبَ نسله إلى عائلة عريقة ولو بالمكر والخداع. إن عائلة السادات أكثر العائلات شرفًا في المسلمين، وعائلة "برهمن" في الهندوس. فلو تزوج أحد في عائلة شريفة فسيركز جهوده لأنْ ينسب نفسه أيضا إلى أية عائلة شريفة وعريقة. وفي هذه الحالة سيكون محور الجمال الشهوة، ويكون محور النسب المكرُ والخداع والقهر. وهناك نكتة شهيرة عن الذين ينسبون أنفسهم إلى العائلات الشريفة. يحكى أن شخصًا حضر المحكمة للإدلاء بشهادة ما وأخبر أنه من عائلة السادات، فاعترض الفريق المناوئ له على قوله هذا، فسألت المحكمةُ شهادة أحدهم على ذلك فقال ساخرا: أقول وأنا على بصيرة من هذا الأمر بأنه سيدٌ، لأن والده كان إسكافيا ثم نسب نفسه إلى عائلة السادات، فأنا أشهد على أنه صار سيّدًا أمام أعيننا.

إنه لأمر تافه جدًّا، ماذا يغني الإنسان أن يكون سيدًا بالاسم فقط؟! مع ذلك هناك ألوف من الناس يسعون ليل نهار لتغيير نسبهم العائلي. فمن يتزوج المرأة لنسبها تتأسس حياته على المكر والخداع، والذي يتزوج المرأة لجمالها تتأسس حياته على الشهوة، ولكن النبي ﷺ قال: إن

لم تكن نيتكم صالحة اليوم فلا ضمان لها في المستقبل. فعليكم بتأسيس زواجكم على الدين، وهكذا ستحققون الغرضَين الاثنين، وستتمحور أعمالكم أيضا حول الدين.

الربوبية عند النكاح

بعد تراضي الطرفين يتم الاتفاق على شروط للنكاح. وهنا تبدأ الخصومات والنـــزاعات حول مسئوليات الرجل والمرأة. عائلة الرجل تريد أن تسيطر على عائلة المرأة والعكس صحيح أيضا. ولكن النبي ﷺ ينصحنا ويقول اصغوا لنصيحتي، وهي أن الله تعالى خلق الذكر والأنثى ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٩٠] أي خلقهما من جنس واحد، فمشاعرهما متماثلة لا فرق بينهما. وكما تحب المرأة والديها فكذلك الرجل يحب والديه، وهنا ذكر النبي ﷺ طريقًا يستفيد كلاهما بالتمسك به والعمل عليه وهو قوله ﷺ: وتصل الرحم[٩١]. أي راعوا العلاقات الرحمية وفق أوامر الله تعالى، ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٩٢]. أي لا تخادعوا. باختصار، أسدى النبي ﷺ بخصوص النكاح تعليمات مفصلة لو فصّلتُ فيها لتحوَّلَ هذا الخطاب إلى خطبة عن النكاح. ملخص القول، إن النبي ﷺ قد أبدى مظهر الربوبية في هذه المناسبة أيضا.

---

[90] النساء: ٢

[91] البخاري، كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم.

[92] الأحزاب: ٧١

الربوبية عند دخول المرأة بيت الزوجية

قد تغلب العواطف الشهوانية عند دخول الزوجة بيت زوجها، وهنا أيضا نجد رسول الله ﷺ يوصينا بأن نقوم بالدعاء لإنجاب الذرية الطيبة من خلال هذه العلاقة. لا شك أنكم صلحاء وأتقياء ولكن قد يصبح أولادكم أشرارًا، وهو ما يؤدي إلى نشر الفساد في العالم، وهكذا سيتم تدمير التقوى التي أحرزتموها. لذلك فادعو الله تعالى أن تنتج علاقتكم هذه التقوى[٩٣]. في هذا الوقت تريد الشهوة أن يغرس الإنسان بذرها، والروحانية تريد أن يغرس بذرها، ولكن النبي ﷺ جاء وقال: يمكنكم زرع بذرة الشهوة ولكن مع حلاوة الروحانية.

الربوبية عند ولادة الطفل

بعد الزواج ينجب الإنسان. ولقد أبدى النبي ﷺ مظهر الربوبية للطفل فور ولادته، وأسدى لتربيته تعليمات تفصيلية يندر نظيرها في الأديان الأخرى. لقد أمر ﷺ بالأذان في أذن الطفل فورَ ولادته[٩٤]. يبدو الطفل في هذا الوقت وكأنه شيء لا حياة فيه، مع ذلك أمر ﷺ بإلقاء ذكر تعظيم الله تعالى وتكبيره في أذنه، وله فائدتان: أولاهما: لا يضيع

---

93 البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله.

94 انظر: كنـــز العمال رقم الحديث ٤٥٤١٤

القول الذي ألقي على الأذان في ذلك الوقت، ثانيهما: هو تنبيه للوالدين أنهما إذا كانا قد أُمِرا بالاهتمام بتربيته منذ الولادة، فكم سيكون حريًّا بهم الاهتمام بها عندما يكبر!

الأمر بتربية الأطفال

عندما يكبر الطفل قليلا نؤمر بتعليمه، بل أكّد النبي ﷺ على تعليم البنات أيضا، وقال: من كانت له جاريتان وأحسن تعليمهما وتربيتهما دخل الجنة[٩٥]. أي لقد اعتُبر هذا الأمر ضروريًا بحيث جعله ﷺ واجبًا على الوالدين، فلقد قال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٩٦]، ويراد به التعليم الباطني والظاهري معًا، وألقيت هذه المسئولية على الوالدين ليجمّلا أولادهما بالتعليمَين وينقذاهم من النار. والمراد من النار المرض والفقر أيضا اللذان يَنْتُجَان عن الجهل، كما أن المراد منه جحيم الآخرة أيضا، وكأننا أمرنا بإنقاذ أولادنا من كل نوع من الجحيم والنار. إن سوء الخلق أيضا من جهنم، لأن الناس يكرهون سوء الخلق وينفرون منه. فإن هذه الآية عامة وتحتوي على أمر بحماية الأولاد من كل نوع من النار، وجُعل ذلك من

95 الترمذي، أبواب البر والصلة

96 التحريم: ٧

واجب المسلم أن يُشرف على الحالة التربوية للطفل، وقال تعالى بأنكم ستكونون مسئولين عن فساده.

إبداء مظهر الربوبية لليتامى

يموت آباء بعض الأطفال فيصبحون يتامى، وأُمرنا بالحفاظ على أموالهم[٩٧]. ثم أوصينا بمراعاة مشاعرهم، وضرورة تعليمهم. باختصار، لم يهمل النبي ﷺ هؤلاء أيضا بل أصدر أوامر تفصيلية لتربيتهم لا نجد نظيرها في الأديان الأخرى، التي لو وجدنا في بعضها أصولاً لتربية الأولاد فلا نجد فيها شيئا يتعلق باليتامى، وإذا وجدنا فيها ما يخص اليتامى فلا نعثر على شيء يتعلق بتربية الأولاد، ولكن النبي ﷺ قد تناول أمر تربية الجميع ولم يترك أحدًا دون إبداء مظهر الربوبية له.

إرشاد الشباب

بعد مرحلة الطفولة يدخل المرء مرحلة الشباب، وهنا نجد النبي ﷺ يعطينا تعليمات مفصلة ومتعلقة بمرحلة الشباب، مثلا: إلى أي مدى نتمتع بالحرية في العواطف والمشاعر، وكيف ينبغي أن تكون معاملتنا مع والدينا، وكيف يجب أن يعامل الوالدان أولادهما الشباب. جاء

97 انظر: النساء: ٣، ٧

شخص إلى النبي ﷺ وقال: وهب والدي حصانًا لأخي ولم يعطني مثله. دعا النبي ﷺ والدَه وقال له إما أن تعطي جميع أولادك مثله أو لا تعطي أحدا[٩٨].

لقد ذكر النبي ﷺ تعليمات تتعلق بهواجس النفس التي تبرز في أيام الشباب خاصة، وذكر حدودًا للفتاة والفتى أيضا، وإلى أي مدى يتمتعان بحرية في أمر زواجهما، وما هي الحدود التي ينبغي عليهم مراعاتها، كما ذكر نوع العلاقة بين الأخ والأخت أيضا.

مظاهر ربوبية النبي في الأمور الدنيوية

لقد أصدر النبي ﷺ أحكامًا وتعليمات تفصيلية لمن يقومون بأعمال دنيوية أيضا. فقد قال: يجب ألا يرتكب المرء غشًّا في التجارة[٩٩]. وذكر أحكامًا مفصلة للتجارة المؤقتة والدائمة، وأصدر تعليمات بشأن الرهن والبيع.

كما أصدر أحكامًا لجميع ضرورات الإنسان، فأخبر الأولاد عن كيفية التعامل مع آبائهم المتقدمين في السن، وقال: ينبغي ألا تقولوا لهم حتى كلمة "أفٍّ"[١٠٠].

---

[98] انظر: البخاري، كتاب الهبة، باب الهبة للولد، وباب الإشهاد في الهبة.

[99] انظر: سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب النهي عن الغش.

[100] انظر: الإسراء: ٢٤

تجلي مظهر ربوبيته على الميت

وللموت وقت محدّد، وأصدر النبي ﷺ أحكامًا بشأنه أيضا، وأخبر أن هذا الوقت هو الوقت الأخير للإنسان فلا تُفسدوا عاقبته في هذا الوقت من أجل فائدتكم المحدودة، بل أفسِحوا له الفرصة ليملأ قلبَه محبةً لله وينتبه إليه في تلك اللحظات الأخيرة، فلا تضيّعوا تلك اللحظات الثمينة جدًّا بسؤاله: كيف ستقضي زوجتك الحياة بعدك؟ ماذا عسى أن يكون حال أولادك بعدك؟ بل ينبغي أن تقرأوا عليه الآيات القرآنية ولا سيما سورة يس[١٠١]. وبعد وفاته يجب أن تعالجوا مشاكلكم بأنفسكم، فلا تفسدوا وقته الأخير هذا بذكر هذه الأمور أمامه. ثم أمره أن يقوم بالوصية قبل هذا الوقت بخصوص الأموال والعقار إذا كان يملكها[١٠٢]. وذلك حتى لا تزعجه هذه الأمور وقت وفاته. كان النبي ﷺ يؤكد على هذا الأمر حتى كان أحد الصحابة يقول: مَا مَرّتْ عَلَيّ لَيْلَةٌ إلاّ وَعِنْدِي وَصِيّتِي[١٠٣]. لقد أمر النبي ﷺ بذلك حتى يتمكن من التوجّه إلى الله تعالى ولا تضيع اللحظات الثمينة الأخيرة للإنسان قبل موته. هذا الوقت هامٌّ جدًّا للتوجه إلى الله وذلك لكي يستمرّ هذا التسلسل في الحياة الأخروية

---

[101] انظر: سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب القراءة عند الميت.

[102] انظر: البقرة: ١٨١

[103] مسلم، كتاب الوصية، باب وصية الرجل مكتوبة عنده.

أيضا. فلو كان أحد قد تأوّه وذكر في وقته الأخير: يا أولادي! ويا زوجتي! فسيظل متوجّهًا إليهم وقت الرحيل؛ ولكنه لو ذكر الله تعالى لكان متوجّهًا إلى الله عند مغادرته هذا العالم. ومثاله أنه لو نام الطفل على البكاء من أجل الخبز لاستيقظ صباحًا وهو يذكر الخبز أيضا. باختصار؛ لم ينسَ النبي ﷺ هذه اللحظات الأخيرة في حياة الإنسان وأمره بحمد الله وتقديسه في هذا الوقت أيضا.

الربوبية بعد الموت

لم ينسَ النبي ﷺ حالة الإنسان بعد موته أيضا، بل أمر بغسله وتكفينه، وكان يحترم موتى كل قوم. كان جالسًا إذ مرّتْ جنازة شخص فقام احترامًا لها، فقال أحد الصحابة: يا رسول الله! إنها جنازة يهودي، قال النبي ﷺ: أليست نفسًا؟![١٠٤] أي أن اليهودي أيضا عبد من عباد الله. ثم أوصى ﷺ قائلا: اُذكروا محاسن موتاكم[١٠٥]. ويمكن القول بأن محمدًا رسول الله ﷺ قد اعتنى بكل ميت وأبدى مظاهر الربوبية تجاهه، وأعطى أوامر وتعليمات تتعلق بحياته الكاملة من الولادة وحتى الممات، وعليه فلو نظرنا إلى الناس فرادى فسنجد أن النبي ﷺ أبدى مظاهر الربوبية تجاههم أيضا.

[104] البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي.

[105] سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في النهي عن سب الموتى.

الربوبية الروحانية

من أعظم إحسانات النبي ﷺ أنه أصبح سندًا للجميع في حياتهم الأخروية. لقد دعا أفراد الأقوام كلها للاشتراك في الدعوة إلى الله. لقد قال النبي ﷺ: كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً[١٠٦]، فلا يقول الإسلام للهندوسي: لا علاقة لك بالتعليم الذي نزل في العرب، بل جاء النبي ﷺ بذلك النور الذي قال الله تعالى عنه: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[١٠٧] أي ليس هذا التعليم خاصًّا بالشرق ولا بالغرب. وبهذا الإعلان قد برهن على كونه مظهرًا لربّ العالمين.

لقد جاءت امرأة إلى المسيح والتمست منه أن يعلّمها تعليمَه، ولكن لما كان تعليمه مخصوصًا بقوم معيّن وكانت تلك المرأة من غير هذا القوم، لذلك قال لها السيد المسيح: "لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ."[١٠٨] كذلك قال: "لاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ."[١٠٩] وهكذا أخبرها بأن تعليمَه محدود بقوم. ولكن رسول الله جاء بتعليم للناس كافة وهكذا أصبح مظهرًا كاملا لصفة رب العالمين.

---

106 البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا.

107 النور: ٣٦

108 إِنْجِيلُ مَتَّى ١٥: ٢٦

109 إِنْجِيلُ مَتَّى ٧: ٦

الربوبية العامة

ملخص القول، ستجدون ربوبيته عامّة في الحالة المادية والروحانية. الربا ممنوع في دين اليهود أيضا ولكنهم يأخذونه من غير اليهود.[110] وأما النبي ﷺ فقد حرّم أكل الربا من الجميع، وقال: من الظلم العظيم استغلال حالة المحتاج وإقراضه المال بالربا. فلم يفرق النبي ﷺ بين الناس من الناحية المادية أيضا. ولكن مع الأسف قد نشأت فئة من الناس بين المسلمين أيضا ممن يجيزون مخادعة غير المسلمين. ولقد أفتى بعض المشايخ بجواز أكل الربا من الكفار! في حين أن الإسلام يأمره أنه إذا كانت حالة أحد تستدعي الرحمة فلا بد أن ترحموه بغض النظر عن انتمائه العرقي، وإذا كان المكر والخداع سيئين فلا يجوز التعامل بهما مع أحد الناس، ولا يصح جوازهما حتى مع غير المسلمين. كان الخليفة الأول يقول: أعطيت شخصا نصف روبية وطلبت منه أن يشتري سلعة بربع روبية، فجاء بتلك السلعة بعد قليل وأرجع إلى حضرته نصف الروبية نفسها قائلا: لقد احتلت على الكافر اليوم بحيلة ماكرة، لقد أخذت منه السلعة بربع روبية وأرجعَ لي ربع روبية، ثم سألته عن شيء لا يعرضه أصحاب المحلات في الخارج بل يخبئونه في الداخل، فذهب لأخذه ونسي نصف الروبية التي أعطيتها إياه خارج صندوقه فأخذتها بسرعة ودسستها في جيبي.

---

110 انظر: التثنية ٢٣: ١٩، ٢٠

يجيز بعض المسلمين هذه الأعمال، إلا أنها ليست من تعاليم الإسلام في شيء، بل التعليم الإسلامي هو أن تعدلوا مع الجميع، وينبغي أن تتم المعاملات الدنيوية مع الجميع بعدل تام بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية.

حرمة التمييز العنصري والعرقي

لقد قضى النبي ﷺ على التمييز العنصري، فقد كان المسيحيون يفرقون بين مقاعد الأغنياء والفقراء في كنائسهم، وهناك فئة المنبوذين بين الهندوس وهناك "البراهمة" (أي المقدسون)، أما اليهود فهناك فرق شاسع بين بني هارون وبين سائر بني لاوي، ولكن النبي ﷺ قال بأن المكانة العرقية ليست بشيء، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١١١]. ومن يرتكب الشر ويكذب ويعمل أعمالا سيئة فإنه سيئ مهما كان انتماؤه العرقي. إن هذا الموضوع واسع جدًّا بحيث يشمل جزئيات الأديان كلها، ولكن لا يسعني إلا أن أشير إليه الآن إشارة لأن وقت صلاة المغرب قد اقترب.

الإلهام الإلهي

ثم هناك صفة الرحمانية، ومعناها أن الله تعالى قد هيأ أسبابًا ووسائل لاستخدام ما خلقه تعالى من قوى وغيرها. ولنرَ على ضوء هذه الصفة

---

[111] الحجرات: ١٤

فيما إذا كان النبي ﷺ قد هيأ أسبابًا لإفادة مَن ليس لهم حقّ في المطالبة بها؟ وهل وضع نظامًا لتدبير عمل كل عامل قبل أن يشرع فيه؟

إن أول ما ينبغي أن نتذكره في هذا الخصوص هو أن ما يناله الإنسان بغير كسب هو الوحي. كان باب الوحي مغلقًا وكان يُظنّ أن الوحي قد اقتصر على الأولين أما الآن فقد أُغلق بابه، ولم يكن ثمة أمل لأن تناله الأجيال في المستقبل. لقد اهتم النبي ﷺ بمشاعر الناس وأخبرهم أن باب الوحي لا يزال مفتوحًا. لو كان أحد يملك كفاءة لإحراز شيء ما أو تتميز فطرتهُ بحيازة أمر ما فلا يمكن أن يسعى لتحقيقه ما لم يعلم أنه بإمكانه الحصول عليه. لو أن كنـــزًا مدفون في بيت امرئ ولا يعلم عنه شيئًا، فلا يسعه الاستفادة منه. فلقد أودع الله تعالى جميع الناس هذه القوى ومتّع جميع الأذهان بكفاءة تلقي الوحي، واعلموا أن طول الأمل والتوكل يمثلان بابًا لتلقي الوحي. ولقد خلق النبي ﷺ في جميع الناس أملا لفتح باب الوحي. إن الله تعالى يعامل عبده بحسب ظنّه به. قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي[112]. أي أعامل عبدي بحسب ظنّه بي. إذا كان عبادي يقولون أن باب الوحي مسدود قلتُ فليكن مسدودًا عليهم، ولكنهم إذا كانوا يقولون لا بد أن نحظى بلقاء

---

[112] البخاري، كتاب التوحيد، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾.

الله تعالى قلت لهم: تعالوا تمتّعوا بلقائي. لقد خلق النبي ﷺ هذا الأمل وفتح باب التوكل.

إنشاء نظام كامل لإعانة الفقراء

أقدم لكم مثالًا ملموسًا أيضا. جاءت جميع الأديان بتعليم الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء، ولكن لا يمكن أن يتحقق هذا الأمر بصورة صحيحة وكاملة ما لم يكن تحت نظام محكم، إذ يمكن أن يقول الجميع سننفق في سبيل الله ولكن لا يعلم أحد متى ينبغي أن يبذلوا الأموال وماذا يجب أن ينفقوا؟ أما النبي ﷺ فقد سنّ قواعد لمثل هذا الإنفاق بحيث يضطر من يستطيع الإنفاق إلى أن ينفق كل سنة مبلغًا معينًا لإعانة من لا يقدرون على عملٍ ما لكسب العيش. حيث يُجمَع هذا المبلغ في مكان واحد ويوزّع على المحتاجين والمعوزين، وبذلك يمكن السعي لنهوض الفقراء. وهذا العمل أيضا يندرج تحت صفة الرحمانية. لولا ضيق الوقت لفصّلت في كيفية إغلاق هذا الأمر لباب السرقة والنهب وقطع الطرق والفساد وغيرها.

المظهر الكامل لصفة الرحيمية

الصفة الثالثة هي الرحيمية ومعناها أن يجازى الإنسان على أعماله الصالحة بأحسن وأفضل جزاء. ومن شيمة الصلحاء والطيبين أنهم يجزون مَن أحسن إليهم. فمثلا إذا قال امرؤ للآخر: تفضل سيدي، فسيحاول

الشخص الآخر أن يردّ عليه الجميل ويحسن إليه، ولأجل ذلك سيقول له: تفضل حبيـــبي على عيني ورأسي. أو إذا قال أحدهما للآخر: أنت رجل طيب جدًّا، ردّ عليه الآخر: أنا لا أساوي شيئًا أمامك. غير أن الناس يدأبون على الالتزام بمثل هذه الثقافة ما لم يتضرروا، أما إذا كان هناك احتمال التعرض للأضرار فسينسون كل شيء. أهل دلهي يُعرَفون بلقب الميرزا، وأهل "لكهناو" يُدعون بلقب "مير" وكلاهما معروفان بالالتزام بالآداب الثقافية والاجتماعية العالية والمجاملات. يقال أن "مير" من سكان "لكهناو" و"مرزا" من أهل دلهي اجتمعا في محطة القطار، وأراد كل واحد منهما أن يظهر للآخر ثقافته والتزامه بجمل المجاملات حتى لا يحسبه غيره عديم الثقافة. فوقف "مير" على باب عربة القطار وأصبح يقول منحنيًا بمنتهى اللطف: اركب سيدي الفاضل "مرزا"، أما "مرزا" فكان يقول لـــ"مير" اركب أنت أولا يا سيدي مير لأنني لا أجد نفسي مستحقًّا للركوب قبلك. أخذ الناس يأتون بأمتعتهم ويضعونها في العربة ويركبون، أما هذان الاثنان فأخذا يتبارزان في كيل المديح وتبادل جمل المجاملات إلى أن صفّر القطار إيذانًا للانطلاق، فقفز أحدهما دافعا غيره استعجالا للركوب وتمتم قائلا: لا يفسح هذا الشقي مجالا للآخرين؛ ثم قال له: هل ستفسح لي مجالا للدخول إلى العربة أم لا؟! باختصار؛ يتخلى الناس عن مثل هذه المجاملات عند تعرضهم لتقديم التضحية.

الإحسان رغم التعرض للضرر

لقد قدّم النبي ﷺ أسوة في الرحيمية أيضا بحيث أحسن إلى الآخرين رغم تعرضه للأضرار. لقد أنبأ كل نبي ببعثة سيدنا محمد ﷺ، ويُظن من ذلك أن الناس قد استفادوا من هذه النبوءات وآمنوا به ﷺ؛ ولكن الحقيقة هي أن الذين أسلموا بسبب تلك النبوءات كان عددهم أقل بكثير ممن آمنوا بسبب تعاليم الإسلام الرائعة، أما الذين استمالهم النبي ﷺ بتعاليمه وحسن خلقه فعددهم كبير جدًّا؛ مع كلّ ذلك أدى النبي ﷺ حق الإحسان إلى هؤلاء الأنبياء على الرغم مما أصابه من ضرر، وذلك لأنه لو قال النبي ﷺ أن الأنبياء السابقين كانوا صلحاء وأبرارًا لقيل له: ما الحاجة إذًا إلى بعثتك؟ أما لو قال النبي ﷺ: جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، أما أنا فنبي صادق، لأن العالم بحاجة الآن إلى هادٍ صالح وبار، لسهّل ذلك كثيرًا عليه ﷺ، ولكنه لم يفعل ذلك بل أحسن إلى الأنبياء ردًّا لجميلهم فأعلن: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[113]. لعل عشرين شخصًا أو مائة أو مائتين من الناس دخلوا الإسلام بسبب نبوءات الأنبياء السابقين، ولكن النبي ﷺ قد جعل مئات الألوف من الناس يؤمنون بقدسية هؤلاء الأنبياء وطهارتهم. وهكذا تحمل النبي ﷺ الضرر وقام بردٍّ جميل وعظيم على إحسانهم اليسير. لقد

---

[113] فاطر: ٢٥

اعترض أقوام الأنبياء على أنبيائهم ولكن النبي ﷺ أزال عنهم الاعتراض وقال: العيب فيمن يعيب عليهم.

إحسانه إلى الفقراء

إن الفقراء هم أوائل المؤمنين دومًا في جماعات الأنبياء، ولأجل ذلك سأل هرقل أبا سفيان: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟[١١٤] ولكن عندما تقوم الجماعة وتترسخ قوائمها وتتدفق عليها الأموال، يستحوذ عليها أقارب الأنبياء ويمتلكونها ويوزّعونها فيما بينهم، ولكن النبي ﷺ قال عن هذه الأموال أنْ لا حقّ فيها لأولادي ولو كانوا فقراء.[١١٥] إن الفقراء قاموا بخدمة الدين ولم يكن ذلك إحسانًا إلى النبي ﷺ، لأنهم في الظاهر كانوا يساعدون النبي ﷺ، إلا أنهم كانوا يساعدون أنفسهم في الحقيقة، مع كل ذلك فقد قدّر ﷺ هذه المساعدة أيما تقدير بحيث قال بأننا نعطي هؤلاء حق أولادنا أيضا ولو كان أولادنا فقراء.

صفة "مالك يوم الدين"

الصفة الرابعة في سورة الفاتحة هي صفة مالك يوم الدين، والمالك هو مَن يسبق ويهتم بأحداث قبل وقوعها ويهيئ أمورًا قبل الأوان. يمكن للخادم أن يقول: سنرى كيف نتصرف في حينها، ولكن المالك يراعي

---

[114] البخاري، كتاب بدء الوحي

[115] انظر: البخاري، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ.

كل الأمور سلفا ويهتم بها حتى لا تنشأ أية خصومة أو شجار. والنبي ﷺ صار مظهرًا لصفة "مالك يوم الدين" بهذا المعنى، إذ دل الناس على طرق تجنب الأخطاء التي يمكن أن تصدر من الإنسان. نرى في هذا العالم أن القاضي يُوقِع العقوبة بحق السارق ولكنه لا يعمل شيئًا للقضاء على الأسباب والدوافع التي أسفرت عن تلك السرقة. لقد اقتصرت تعاليم الأديان الأخرى أيضا على معاقبة الشرير، أما النبي ﷺ فقد أغلق باب الشر، فقد خلق في نفوس المؤمنين صفة الغنى وأمرهم بألا يكونوا طامعين في متاع الآخرين، ومن ناحية أخرى أسس نظام الزكاة والصدقات حتى لا يضطر الفقير إلى السرقة وغيرها بسبب الفاقة والحاجة.

قالت بعض الأديان: لا تَزنِ، ولكن النبي ﷺ أمر بغض البصر[١١٦]، لأن النظر السيئ هو الباعث الأول للفاحشة، ثم أجاز للإنسان أن يتزوج من أربعٍ[١١٧] إنقاذًا له من السيئة إذا كانت واحدة لا تقضي حاجته. فهنا لم يعامل ﷺ الإنسان معاملة القاضي بل معاملة المالك. لا يقول أي مالك إنني سأعاقب الخادم إذا ضرب دواجني، بل يمنعه سلفًا من أن يقسو على الحيوانات. كان النبي ﷺ مظهرًا لصفة الله المالك، لذلك كان ناصحًا لنا أكثر من أنفسنا. كان أحد الصحابة يصوم نهارًا ويقوم ليلا، فمنعه النبي ﷺ وقال: لنفسك عليك حق، ولأهلك عليك حق ولجارك عليك

116 انظر: النور: ٣١، ٣٢

117 انظر: النساء: ٤

حق[118]. وقال النبي ﷺ ذلك كما يقول المالك لخادمه أن لا يُجري حصانه أكثر من اللازم.

المظهر الكامل لكل صفة إلهية

هذا الموضوع واسع حتى أنني لا أستطيع سرده إلا من خلال إشارات موجزة، وكان النبي ﷺ متحليًا بهذه الصفات الأربع بصورة توحي بأنه ﷺ كان إنسانًا كاملا ومكمِّلا أيضا، أي يجعل الآخرين كاملين، فعلى كل إنسان باحث عن المزيَّة الحسنة والجمال أن يقدر النبي ﷺ حق قدره.

دعاء إلى الله

وفي الأخير أدعو الله تعالى أن يحقق في هذا اليوم الهدفَ الذي حُدّد لأجله، وهو بث الألفة والمحبة بين الأقوام المختلفة، وأن يوفق الناس لرؤية الجمال ويقدروا على معرفته. لا شك أنه يسع الجميع رؤية الجمال الظاهري أما الجمال الحقيقي فلا يراه إلا قليل. لا يهتم أحد بتحري الصدق العظيم والأخلاق العليا، وذلك لأن الناس لا يعتادون النظر إلى أنبياء الله الذين خلقهم تعالى مظاهر لنفسه. أدعو الله تعالى أن يزيل هذه الحالة حتى يتمكن الناس من رؤية نوره تعالى، وتنشأ المحبة بين الهندوسي والسيخي والمسيحي والزرادشتي، وأن يتمكن

---

[118] انظر: البخاري، كتاب الأدب، باب حق الضيف

الجميع من رؤية جمال الأنبياء، وأن يتعلموا درسًا من النماذج الحسنة الموجودة في كل قوم. لا شك أن في حياة بوذا وكرشنا وزرادشت وغيرهم من الأنبياء أحداثًا كثيرة يمكن أن يتعلم منها المسلمون دروسًا عظيمة. لقد خلق الله تعالى الحسن والجمال في كل مكان وأدعو الله تعالى أن يوفق الجميع للاستفادة منه. أما النبي ﷺ فهو مطاع الجميع وهو جامع لجميع المزايا، ولكن نجد نماذج لبعض هذه المزايا في كل قوم. فعليكم بالإمعان في كل جمال والاهتمام بكل حسنة. لقد سُمي المسيح الموعود عليه السلام بأمير السلام، وأدعو الله تعالى أن يوفق الناس ليدركوا أن الطريق الوحيد هو طريق السلام، وأن يوفقنا لإقامة الصلح والسلام بين العالم، وأن يحفظنا الله تعالى من كل أنواع العثار. آمين.

(طبع في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٣م، بقاديان)

